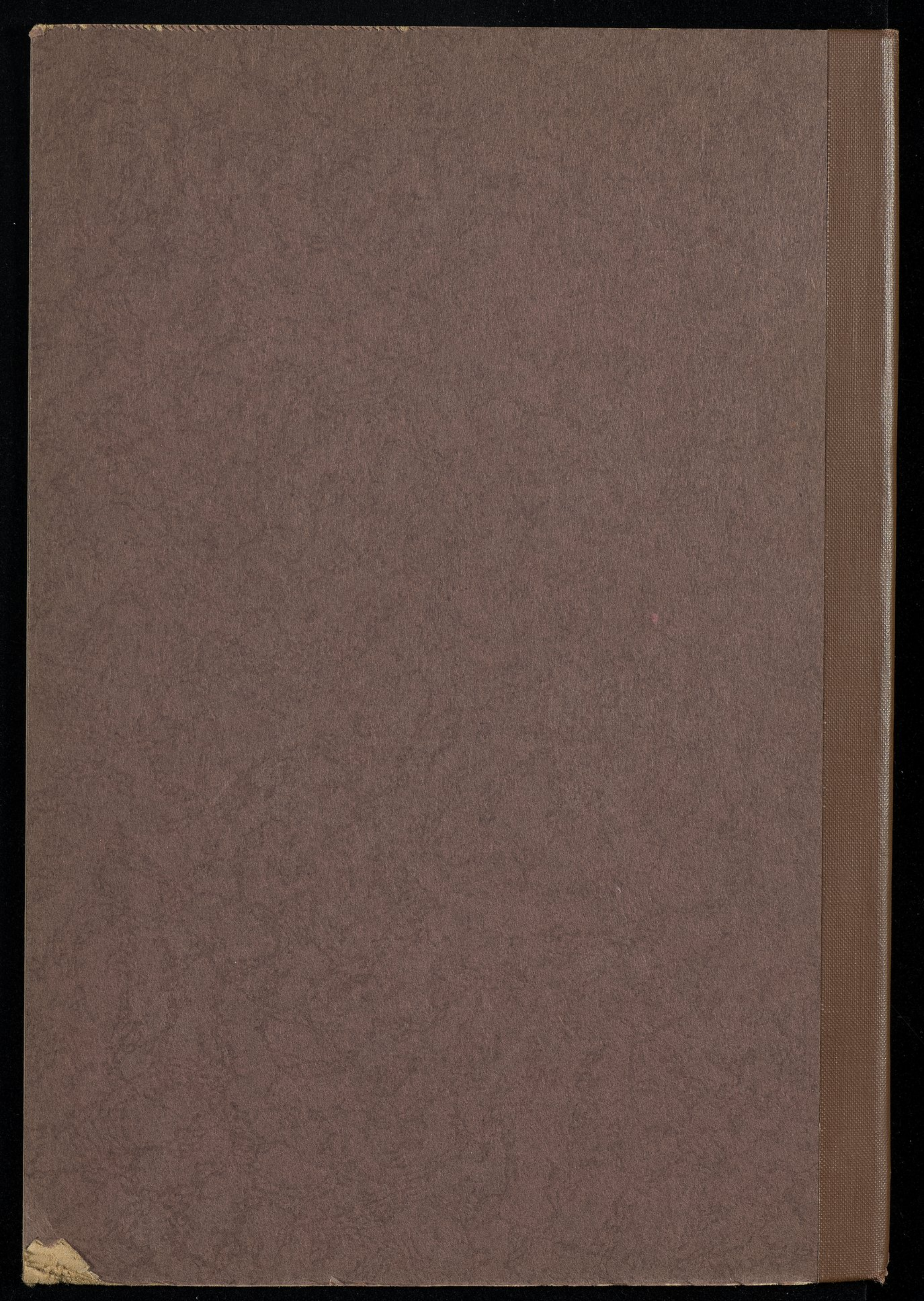
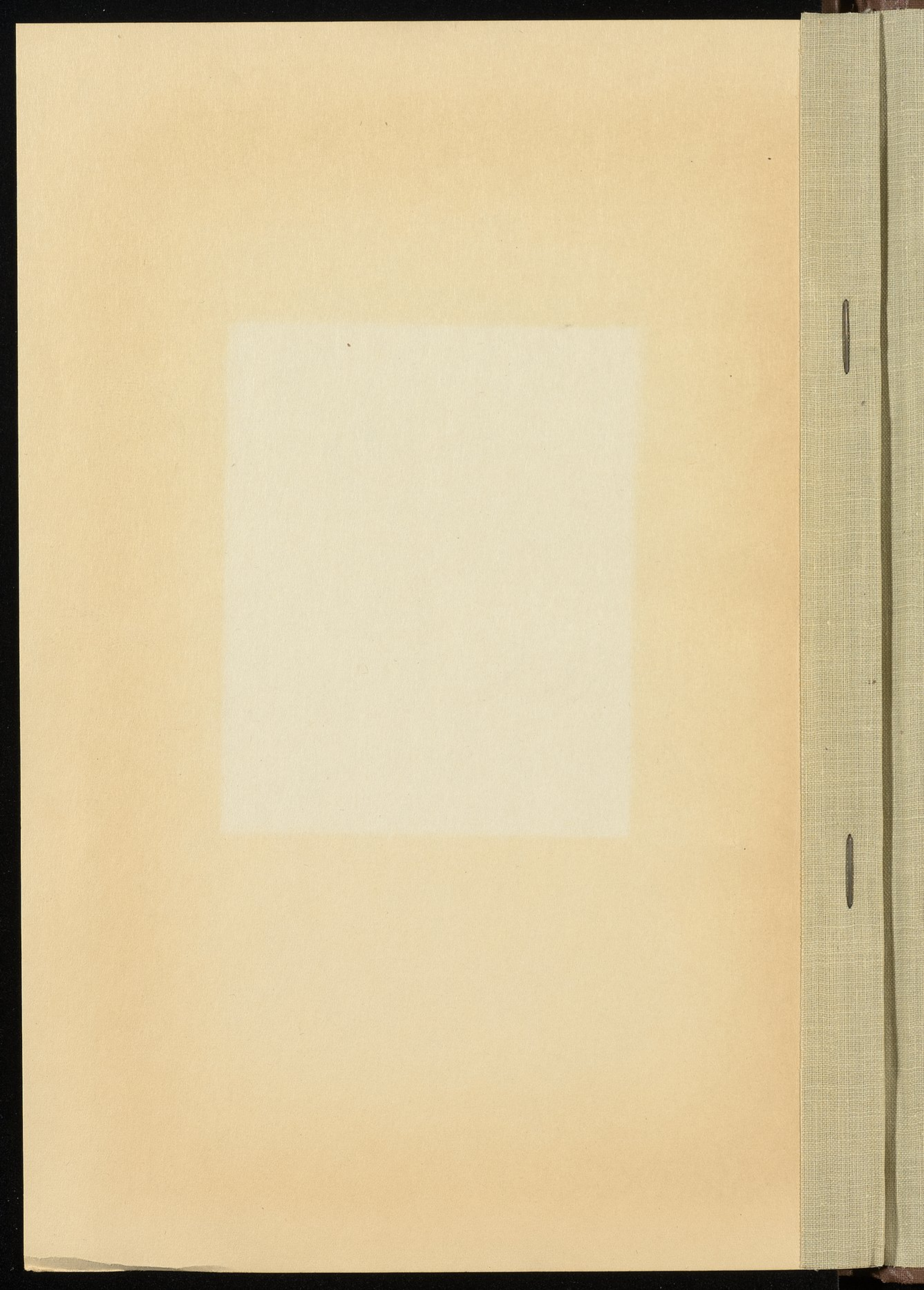
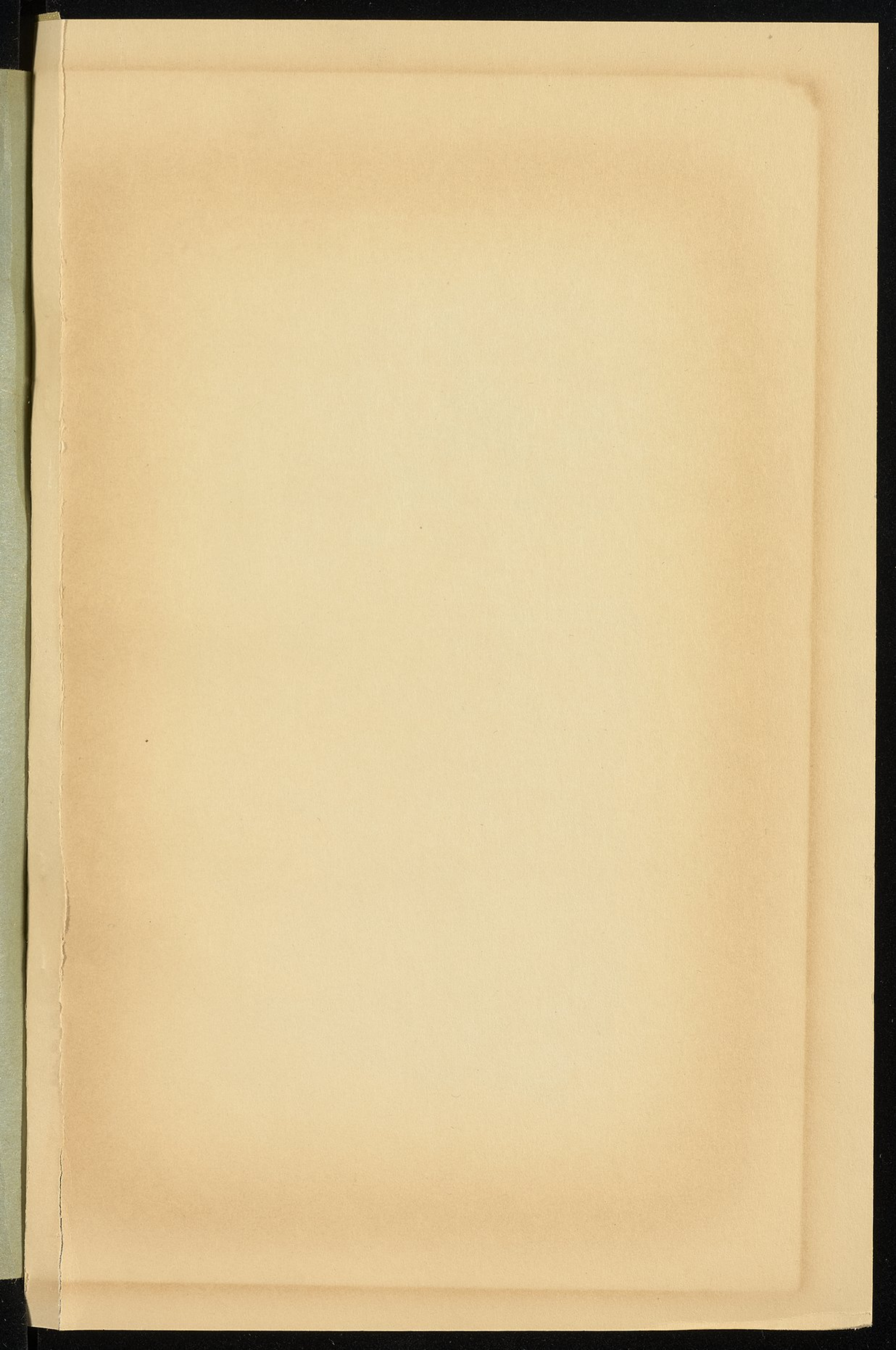


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







مطبوعات جماعة ندوة العلماء - بالهند

إلى الإسلام من جديد

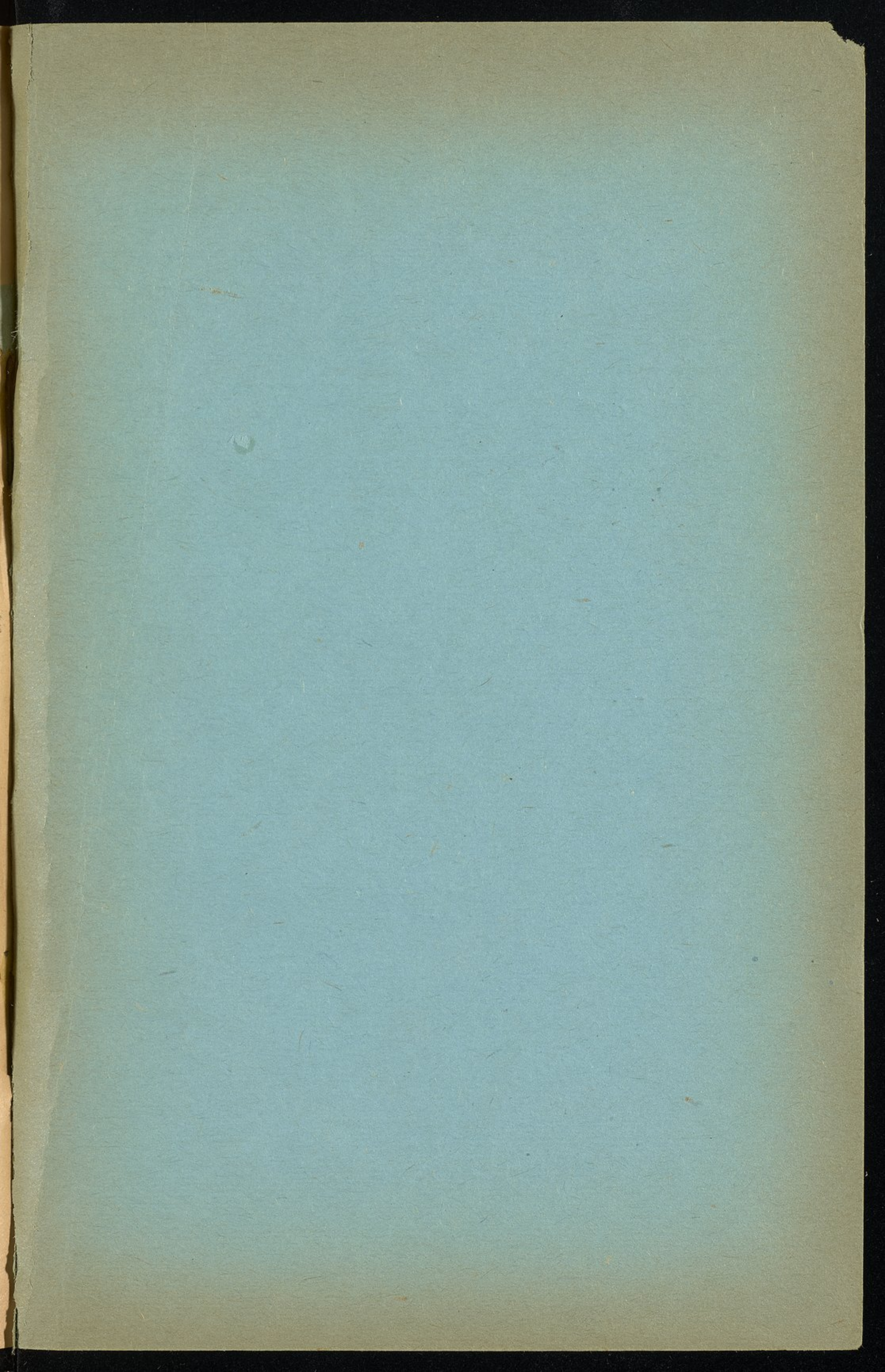
تاليف

أبو الحسن علي الحسني الندوي

وكيل ندوة العلماء - بالهند

الطبعة الاولى

١٩٥١



مطبوعات جماعة ندوة العلماء — بالهند

إلى الإسلام من جديد

بقلم

أبو الحسن علي الحسني الندوي

وكيل ندوة العلماء

بالهند

ملتزم الطبع والنشر



٢٦ شارع عبد العزيز

الطبعه الأولى
٣٠٠٠ - أول رمضان المبارك
سنة ١٣٧٠ ه



مقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فهذه المحاضرات التى يجدها القارىء فى هذه المجموعة كتبت وألقيت فى مناسبات مختلفة تختلف فى الزمان والمكان والعنوان والألوان وتجتمع فى غاية واحدة وهى إيقاظ الشعور الدينى فى المسلمين وإعادة الثقة إلى نفوسهم بمركزهم ومبدأهم وغايتهم فى الحياة ورسالتهم للعالم البشرى ، وتهيئة النفوس لحمل هذه الرسالة وتبوؤ مركز القيادة والامامة للعالم الحائر الثائر ، وتجديف سفينة الحياة الضائعة بين الملاحين العابثين والركاب النائمين، وقد خوطبت فى هذه المحاضرات والمقالات الأمة الاسلامية بصفة عامة إذ هى الأمة الأخيرة التى اخرجت للناس وصاحبة الرسالة الاخيرة التى وجهت الى الناس ، وعنيت بها الامة العربية بصفة خاصة فمن أفقها طلعت شمس الاسلام فى العصر الأول وأسفر الصبح الصادق وقد أسكنها الله فى خير مركز فى العالم لتوجيه الدعوة الاسلامية إزجاء الرسالة الاسلامية إلى الأمم المتحضرة والعالم المتمدن وتبوء مكان القيادة العالمية .

ولما كانت هذه المحاضرات كتبت فى ظروف مختلفة كنت اشك فى وجود وحدة تربط بينها ، لذلك لما اقترح على نشر هذه الرسائل فى مجموعة ترددت بعض الزمن فى إجابة هذا الطلب ونظرت فيها من جديد فإذا بوحدة تجمع بينها وغاية تشترك فيها وهى الدعوة الى الاسلام من جديد ، فقبلت هذا الاقتراح وجمعتها فى مجموعة أسميتها « إلى الاسلام من جديد » وأدعو الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها القراء وان يحرك بها سواكن القلوب ويحى بها موات النفوس انه على كل شىء قدير

وقد طلبت من صديقى الجليل فضيلة الاستاذ الشيخ احمد الشرباصى المدرس بالازهر الشريف ان يقدم كل محاضرة فى سطور تتجاوب مع هدف المحاضرة وروحها وقد كان موفقا وبارعا فى تقديم المحاضرات وتلخيص موضوعها كلمات يجدها القارىء فى ناصية كل محاضرة ؟

ابو الحسن على الحسنى الندوى
نزيل القاهرة

893.791
N125

(١)

معقل الانسانية

« كانت الدنيا قبل الرسالة المحمدية غابة افتراس ، وسوق سلع ، فجاء محمد صلى الله عليه وسلم بالاسلام فبعثها بعثا جديداً ، وأعطى الحياة عزتها وكرامتها ، وأعاد الايمان بالروح والبعث وهدى السماء . وما الأرض بدون الاسلام إلا مدنية بلا روح ، وحياة بلا مبدأ ، وأمة بغير رسالة ، وماذا تكون الحياة بدون عقيدة ويقين ؟ .

ولقد علم الاسلام أتباعه القوة والاقدام والجهاد والايثار والشهادة وإخلاص النية لله وحده ، فأصبحوا القوامين على العالمين وقد كانوا رعاة الشاء والابل . وإذا كان العالم الحائر المنكوب يريد الخلاص من ظلماته المتكاثفة فليستجب لهتاف الاسلام المنقذ ، فانه نور الخالق الهادى فى هذا الوجود ، وليقدم المسلمون لتحقيق ذلك الانقاذ من جديد . فانهم معقل الانسانيه . »

احمد الشرباصي

165476

APR 14 1955

معقل الانسانية

سرح طرفك فى عالم القرن السادس المسيحى ولا يفتننك الأبنية الشامخة المشيدة والملابس الفاخرة المزخرفة وقناطير الذهب والفضة المقنطرة ، فذلك ماتراه فى مجموع الصور القديمة ودار الاثار العتيقة ، ولكن انظر هل ترى للمروءة حياة فى ناحيه من نواحى الشرق والغرب ! أحبس نفسك واستمع ، هل تحس لها عرقا ينبض وقلباً يخفق ؟

ترى الحياة بحرا يزدرد فيه الحوت الكبير الحوت الصغير والعالم غلبة يفترس فيها الأسود والكلاب والخنازير والذئاب الغنم والخروف ، لقد انتصر الشر على الخير ، والرذيلة على الفضيلة ! والأهواء على العقل ، والبطن على الروح ، لقد تطاولت الأرض السماء سفاهة ، ونصبت للفرقدين الحبائل .

أصبحت الدنيا سوق المناداة ، بضائعها كل ملك ووزير وغنى وفقير يباعون بيع السلع فهل ترى فى هذا الغمار فتى يربأ بنفسه عن أن يباع بيع السلعة وينادى : أن هذا الجو الفسيح لا يسع لطيرانى ، لقد كانت الحياة لا تقع منى بمكان نخلق الله لى حياة ثانية فكيف أبيع روحى وجوهر انسانيتى بكسر من كسور هذا العالم الصغير ؟

لقد صارت للشعوب والبلاد ثم القبائل والعشائر ثم الأسر والبيوتات دوائر صغيرة ، واعتاد أصحاب الطموح والكبرياء أن يسكنوا فيها كالاقزام لا يضيقون بها ذرعاء ولا يبغون عنها بدلا ، ولا يرون فى خارجها حياة ولا يعرفون بشرية أوسع وعالما أفسح ، لقد أصبحت الحياة تعاطيا فى البيع والشراء وتسابقا فى المكيدة والخداع ، أصبحت البشرية جثة هامدة ليس فيها حرارة روح ولوعة قلب وسمو نفس .

لقد نبتت على أديم البشرية غابة كثيفة ، وحشائش شيطانية فيها آجام يعيش فيها السباع الضارية والحشرات السامة وفيها مستنقعات فيها أنواع العلق ، وفى الغابة كل سبع مخيف ، وكل طائر جارح ، وفى المستنقعات كل علق خبيث يعلق بالانسان

ويمتص دمه ، ولكن لم يكن فى هذا العالم المزدحم بالبشر من يستحق أن يسمى بشراً ، أما الرجال فقد لجاؤا إلى المغارات والاديار والكنائس واحتفظوا بدينهم وحياتهم أو مكثوا فى تيار الحياه يتلهون بالفلسفة ويتغنون بالشعر وليس فى المدنية رجل جد يكافح أعداء المدنية وينتصر للبشرية المظلومة

وإذا بهذه الجثة البشرية الهامدة يدب فيها دبيب الحياة ، وإذا بهذا الجسد الميت يهتز اهتزازا تتزلزل به أوكار الطيور التى قدعششت عليها وباضت وفرخت وهى تحسب أنها ميتة لاحراك بها ، وإذا ببيوت العناكب تتفتت وتتساقط ، وذلك مايعبر عنه أصحاب السير والروايات فى لغتهم بارتجاج ايوان كسرى وخمود نار المجوس أما رأيت كيف تتناثر المبانى المجصصة والبروج المشيدة كأوراق الخريف بحركة من باطن الارض فيضطرب بها ظهر الأرض فكيف لا تزلزل نظم كسرى وقيصر ، وما بناه فراعنة العصر ببعثة النبى الأعظم ﷺ وطلوع فجر السعادة والعدل فى العالم .

بعث محمد بن عبد الله الهاشمى ﷺ فى مكة قلب العالم المتمدن المعمور فأرسل صيحة دويتها الغابات وجاوبتها الجبال وذلك قوله « لا اله الا الله محمد رسول الله » كلام وجيز يحمل فى أثنائه عالم المعانى والحقائق ، ولقد شهد التاريخ بأن أسس الحياة الكاذبة المزورة ودعائم النظم المصنوعة الجائرة لم تتاثر ولم تتزلزل بشئى مثل مازلزلت فى هذه المرة بهذه الكلمة الوجيزة البسيطة وأن الذهن البشرى لم يضرب أبدا قبل هذه ضربة موجعة فتألم بها هذا الذهن البليد واستشاط غضبا وجن جنونه وقال : « أجعل الالهة الها واحدا ان هذا لشىء عجاب » واعتقد قادة هذه الحياة أنه أمر مبيت وخطة مدبرة ضد هذه الحياة السائدة وأنه لابد من مكافحتها « وانطلق الملا منهم أن امشوا وأصبروا على الهتكم ان هذا لشىء يراد » لقد كانت ضربة قاضية على أفكار الحياة الخاطئة بأسرها يتاثر بها هيكل الحضارة والسياسة بجميع أركانه ،

لقد كانت - ولا تزال - هذه الكلمة تعنى أن هذه الحياة ليست أجمة برية وحشية لم يعتن بها معتن بل هى حديقة منسقة غرسها الله تعالى وتعهد تهذيبها وأصلاحها ، وأن الانسان ريحانة هذه الحديقة وروح الربيع وكيف تذبل هذه الريحانة

وتدوسها الاقدام ، او تخطفها الطير ، أوتهوى بها الريح ،ولم تؤد مهمتها ولم تحل المحل اللائق بها ؟ فتقتضى فطرته أن يعبد الله وحده وتطالبه نفسه السامية أن لا يقتنع بغير رضا الله ، ويقتضى شرفه وكرامته أن يجاهد فى هذه السبيل ويبذل ما عنده من عقل ومواهب أو مال ومكاسب وليس للانسان أن يتطأمن لجسد أو روح أو جبل ونهر أو شجر وحجر أو ثروة مثر أو جاه وجيه أو سلطان ملك ،أنه لا يسمو على كل مخلوق ويتضاءل أمام خالقه ، ان العالم لم يخلق إلا ليخدمه ويطيعه ، ان الله سبحانه وتعالى قد أسجد الملائكة الذين هم حملة القوى الكونية ليعلم الانسان أن هذا الكون خاضع له متواضع ، فيأمره وينهاه ويستخدمه لمصالحه الطيبة ويسخره لمآربه العادلة . . . (وذلك قوله لا اله الا الله) .

ثم ان حياة الانسان هى السهم الوحيد الذى يملكه فاذا أصاب غرضه فياله من سهم مصيب ! وإذا طاش وأخطأ رميته فيا رزيئة رام ضيع سهمه الوحيد ! وان حياته لوسيلة كل سعادة فى الدنيا والآخرة وأنها رأس بضاعته فأخلق به أن يكون ضنينا بهذه الحياة شديد الاحتفاظ بها وان لا يضيعها فى تجربة واختبار وفى مخاطرة وقمار ، وأن لا يخبط فيها خبط عشواء ولا يركب العمياء فانما هى حياته الوحيدة ، وما أقبح القمار فى رأس المال وما أشده خطرا ! فينبغى أن يسير موكب الحياة بدلالة خريت حاذق مجرب فان المفازة موحشة وقطاع الطريق كثير وأن يسير فى ضوء النبوءة والوحى فان عالم القياس والتخمين ظلام فى ظلام «ظلمات بعضها فوق بعض» ، وأن النبوة هى النور الوحيد فى هذه الظلمات المتراكمة والمنبع الوحيد لعلم الله المحكم وأمره المبرم والنبى هو المتصل بهذا المنبع والواسطة بين الحق والخلق فى الهداية «ما ينطق عن الهوى أن هو الا وحى يوحى» ، وأن محمدا ﷺ هو آخر المتصلين بهذا المنبع وخاتم الانبياء والمرسلين الذى نسخ الله به الاديان ونصبه اماما لكل زمان ومكان ، وهو أجمعهم لصفات النبوة والكمالات البشرية ومعانى الحسن والاحسان ، وهو المثل الكامل للبشر فى كل عصر ومصر وأن دينه الذى جاء به هو رسالة كل عصر ودواء كل داء ، فلا يتم الايمان بالله ولا يمكن الوصول اليه إلا بالايمان بالرسل عامة وبمحمد ﷺ خاصة ، وذلك قوله «محمد رسول الله»

وان الانسان ليحمل فى رأسه طموحا لايشبع ،وهمة فى قلبه لاتقف ، وروحا فى جسمه لاتنى ، وقلبا فى جنبه لايطمئن فلا يروى غلته ولا يشبع جوعته هذا العالم الضيق المتثاقل وان طاعته وعصيانه لأوسع من أن يستوفى ثوابها أو عقابها فى هذا العالم المحدود ، فتلزم له حياة خالدة وعالم لا يعرف الثغور والأطراف ليست هذه لحياة الا قطرة من يم إذا قورنت بالحياة الأخرة وليس هذا العالم الاشبحا إذا قوبل بالعالم الاتى ، وذلك هو الايمان بالبعث والحياة الاخرة الذى هو تمام الايمان ، وثالث الأركان فى الأديان .

لقد بلغ الذهن الانسانى فى القرن السادس المسيحى من الشلل الفكرى وبلادة الحس غاية عجز معها عن أن يتخطى الماديات والمحسوسات ومايتصل بالجسم والبطن وأن يعتقد لانسان اختصاصا بالنبوة والوحى ؛ لقد كانت لهم مقائيس ورثوها عن آبائهم فاذا رأوا بدعا من البشر او مثالا جديداً للانسانية قاسوه بمقائيسهم لقد كان بينهم رجال يرون أنهم المنتهى فى العظمة الانسانية فاذا نبغ فيهم عبقرى أو ظهر فيهم رسول قاسوه بهم ، لقد أفرغوا جهدهم ونثروا كنانة فكرهم فلم يروا الا أن محمدا ﷺ أما طالب ثراء ورخاء أو رائد سيادة وملك أو منتجع ترف ولهو ، وإذا أنصفنا ذلك الجيل رأينا أنه لم يبعد النجعة فانه لم يجرب طموحاً فوق طموح الملوك وتطاولا أكثر من تطاول الامراء والوزراء فأرسلوا اليه عتبة بن ربيعه فكلم محمد ﷺ وكان ما قاله تمثيلا صحيحا الذهن ذلك العصر وتعبيراً صادقا عن عواطفه ونفسيته قال : « يا ابن أخى أن كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا . جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ؛ وإن كنت انما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وأن كنت انما تريد به ملكا ملكناك علينا » .

وما أجاب به رسول الله ﷺ كان تمثيلا صحيحا للنبوة وعرضا صادقا لموقف الأمة الوليد فأثبت انه لا يطمح الى ثراء ورخاء أو شرف وترف ، إن نفسه عالية لتسمو عن هذه الخسائس سمو السماء على الأرض إنه لاتهمه راحته الذاتيه ورقيه الشخصى انمـا يقلقه مستقبل البشر إنه لا يصنع لنفسه جنة شداد بل يريد أن يعيد الانسان المنفى إلى الجنة الخالدة التى أعدت له ، انه لا يسعى ليسود قبيلة

أو أمة بل يريد أن يخرج الانسان من حكم الانسان كائنا من كان ويدخله فى حكم سيده الذى هو رب السماوات والأرض .

على هذا الاساس نهضت هذه الأمة وبهذه الرسالة انتشرت فى العالم وان ما أجاب به رسل المسلمين فى مجالس رستم ، ويزدجرد يمثل تمثيلا صادقا لروحها ونزعتها قال ربعى بن عامر : إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا ومن جور الاديان إلى عدل الاسلام ، ولما أمكنهم أن يؤسسوا دولة على منهاج دينهم وأساس عقيدتهم نفذوا فعلا ما كانوا يدعون اليه غيرهم ، فخرج الانسان من حكم الانسان الى حكم الله وعدله ولم يكن الحكم لحزب أو عشيرة بل كان الأمر والنهى لله يقول الخليفة الأول : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لى عليكم » وقال عمر لعمرو بن العاص وقد ضرب ابنه رجلا من أهل مصر : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » وكان نائبهم على مملكة كبيرة كفارس يعيش فى عاصمتها القديمة كأدنى فرد من أفراد الأمة حتى يتوهم الغريب أنه فقير أو أجير فيضع الحمل على رأسه فيحمله إلى بيته ، وكان أكبر غنى منهم يعيش فى الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل فيستهين بملذات هذه الحياة الفانية ويدخر طيباته للحياة الخالدة .

كان وجود هذه الأمة فى كل ناحية من نواحى العالم رمزاً لحقيقة غير الحقائق المادية واللذات الجسدية وكان كل فرد من أفراد هذه الأمة يعلن للعالم وليدا وميتا ان وراء القوى المادية قوة سماوية ووراء الحياة الفانية حياة خالدة فاذا ولد وليد صرخ فى أذنه بهذه الحقيقة وإذا مات فارق الدنيا بهذه الشهادة ، إذا ساد على هذا العالم جمود أشبه بالموت وغاص الناس فى بحر الحياة إلى آذانهم واختفت كل حقيقة وراء الحقائق المادية إذا بصوت يدوى « حى على الصلاة حى على الفلاح » فينكسر طلسم العالم المادى وتتجلى الحقيقة الروحية ويجرى الناس وراء هذا الصوت وقد نفضوا أيديهم من أشغالهم وخروا أمام ربهم ، وإذا ضرب الليل رواقه ومد النوم أطنابه على هذا العالم الحى الصاخب فاذا هو مقبرة واسعة ليس بها داع ولا مجيب إذا بمعين الحياة ينصب فى وادى الموت : تبلج الصبح الصادق فى الليل الغاسق وتتلقى الانسانية الناعسة من مؤذن الفجر درسا فى الحياة والنشاط

والكدح والكفاح ، والشكر والعبادة ، وإذا اغتر أحد بقوته وسلطانه وزها بكثرة ملائه وأعوانه وقال بلسان المقال أو بلسان الحال « أنا ربكم الأعلى » أو « ما لكم من اله غيرى » قام رجل متواضع على منصة عالية فى كل بقعة من بقاع مملكته أو نفوذه ونادى « الله أكبر الله أكبر » فينادى بحكم الله فى مملكته ويرغم أنف الاله الكاذب فى سلطانه .

إذا هاجرت جالية مسلمة من رقعة من رقاع هذه الأرض أو أجليت منها لم يصب نظام المعيشة بشلل أو خلل ، وظل الناس يتكسبون ويأكلون كما تأكل الأنعام وظلت رحى الحياة تدور دورها الطبيعى ، ولكن روح ذلك المجتمع الانسانى يفارق جسده فيصير جثة هامدة لا حياة فيها ولا روح ، كذلك كان فى أسبانيا وكذلك كان فى كل بقعة انسحب منها المسلمون أو أجلاهم عنها أهلها ، وهل اسبانيا الحاضرة الا مدنية بلا روح وحياة بلا مبدأ وأمة بغير رسالة للعالم ؟ !

أن المؤمن وحده هو صاحب عاطفة فى هيكل العقل والمادة الذى لا يعبد فيه إلا النفس والبطن ، وهل الحياة إلا بالعاطفة ؟ وهل الدنيا إذا ماتت العاطفة وغلب العقل وحكمت المادة الا سوق تجارة أو ميدان حرب ؟ فاذا ثار المؤمن للحق كسر طلاسم العقل وفك سلاسل الكون وحطم أصنام المادة وأملى على العالم ارادة الله فاذا هو مطيع خاضع وإذا هو متواضع خاشع ، وقلب تيار الحياة وغير وجه التاريخ وأرغم الكون على أن يسير سيرته .

حالت دجلة فى سبيل المسلمين دون المدائن وكانت السنة كثيرة المدود ودجلة تقذف بالزبد فجمع سعد الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : ألا انى قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم ؟ فقالوا جميعا : عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل ، فندب الناس الى العبور وأذن لهم فى الاقتحام وقال . قولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن دينه وليهزمن عدوه ولا قوة الا بالله العلى العظيم وتلاحق الناس فى دجلة وهم يتحدثون كما يتحدثون فى البر وطبقوا دجلة حتى ما يرى من الشاطىء شىء (١)

(١) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٩٨

نزل طارق بالاندلس والبحر وراءه والعدو أمامه والمستقبل رهيب والطريق مظلم والارض كفة حابل والعدد زهيد والمدد بعيد فهزىء بأشباح المادة المخيفة وعاند العقل وأمر باحراق السفن التى ترجع به الى بلاده (١) وعزم على الفتح وأيقن بالنصر ، فهزم العدو وملك الجزيرة الخضراء للمسلمين.

أراد عقبة بن نافع ان يتخذ مدينة فى افريقيه يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان وكانت وحلة مشتبكة بها من أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك فدعا الله وكان مستجاب الدعـــوة ثم نادى أيتها الحيات والسباع انا أصحاب رسول الله ﷺ ارحلوا عنا فانا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه فنظر الناس ذلك اليوم الى الدواب تحمل اولادها وتنتقل فرأه قبيل كثير من البربر فأسلموا (٢)

خرج محمد بن قاسم وهو ابن سبع عشرة سنة لغزو الهند ومعه حفنة من الناس والبحار حائلة وبلاد العدو واسعة الاطراف وعرة المسالك لم يجربها العرب فهزىء بالمعوقين والمرهبين ، وغلب الايمان القوة وغلب الروح المادة واذا بالهند من السند الى الملتان خاضعة للمسلمين .

ان العالم كله مدينة الاوهام ، والمؤمن وحده هو صاحب يقين لا يزول وعقيدة لا تتحول ، وهو فى يقينه فى عالم الاوهام كمصباح الراهب فى الغابة المظلمـــة ومنارة النور فى بحر الظلمات والجزيرة التى يأوى اليها اليائسون ، والطود الذى لا تزحزحه السيول ولا تزلزله العواصف وقد يتمسك بيقينه ولا يوافقه على ذلك أحد ولا يصدقه احد فلا تخور عزيمته ولا تلين عريكته ولا يرتاب ولا يتلدد والناس بين معارض ومنتقد ومطيع كاره او مخالف معتزل وهو لا يحفل بذلك ويمضى كالسيف حتى يهزم يقينه الف جند من الشك وينقشع سحاب الاوهام ويظهر يقينه مثل فلق الصبح

استعمل النبى ﷺ أسامة بن زيد على جيش وأمره بالتوجه الى الشام ، وتوفى

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٢١
(٢) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٢٢٤

النبي ﷺ ولم يسر الجيش وارتدت العرب اماعامة أو خاصة من كل قبيلة وظهر النفاق واشرأبت يهود والنصرانية وبقى المسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم فقال الناس لابى بكر ان هؤلاء ـ يعنون جيش أسامة ـ جند المسلمين ، والعرب على ماترى فقد انتقضت بك فلا ينبغي ان تفرق جماعة المسلمين عنك ، فقال أبو بكر : والذى نفسى بيده لو ظننت ان السباع تختطفنى لانفذت جيش أسامة كما أمر النبى ﷺ فخاطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو ولن يخرج كل من هو من جيش أسامة الى معسكره بالجرف فخرجوا كما امرهم وحبس أبو بكر من بقى من تلك القبائل التى كانت لهم الهجرة فى ديارهم فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل ، فلما خرج الجيش الى معسكرهم بالجرف وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب وكان معه فى جيشه الى ابى بكر يستأذنه ان يرجع بالناس وقال : إن معى وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفة رسول الله وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون. وقال من مع أسامة من الانصار لعمر بن الخطاب إن أبا بكر خليفة رسول الله الافامض فابلغه عنا واطلب اليه ان يولى أمرنا اقدم سنا من أسامة ، فخرج عمر بأمر أسامة الى ابى بكر فأخبره بما قال أسامة فقال لو خطفتنى الكلاب والذئاب لانفذته كما امر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ارد قضاءاً قضى به رسول الله ﷺ ولو لم يبق فى القرى غيرى لانفذته ، قال عمر : فان الانصار تطلب رجلا اقدم سنا من أسامة ، فوثب ابو بكر وكان جالسا واخذ بلحية عمر ، وقال : ثكلتك امك يابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى ان أعزله ؟ !

وسار أسامة وأوقع بقبائل من ناس قضاعة التى ارتدت وغنم وعاد ، وكانت غيبته اربعين يوميا ، وقيل سبعين وكان انفاذ جيش اسامة اعظم الامور نفعا للمسلمين فان العرب قالوا لو لم يكن بهم قوة لما ارسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون ان يفعلوه (١)

ان العالم سوق لارحمة فيها ولا شفقة ولا مسامحة فيها ولا كرم ، والمؤمن

---

(١) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٢٧ — ١٢٨

وحده هو الذي يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ويسامح مدينه وعدوه ويتنازل عن ملك واسع وعرض قريب طمعا فى الاجر ومحافظة على الكرم .

تغلب ملك كافر على دولة اسلامية فى بلاد مالوه بالهند سنة ثلاث وعشرين وتسع مائة وخرج محمود شاه الخلجى صاحب مالوه من بلاده هاربا عنه الى كجرات فنهض السلطان مظفر الحليم ـ وكان الخلجى لايزال على القلعة وشرع فى المحاصرة وجد فى اسباب الفتح ودخل القلعة عنوة ووضع السيف فيهم وكان آخر امرهم انهم دخلوا مساكنهم وغلقوا الأبواب واشعلوها نارا فأحترقوا واهليهم وبلغ عدد القتلى من الكفرة تسعة عشر الفا سوى من غلق بابه واحترق وسوى اتباعهم ، فلما وصل السلطان الى دار سلطنة الخلجى التفت اليه وهنأ بالفتح ودعا بالبركة فى ملكه وقال له بسم الله ادخلوها بسلام آمنين وعطف عنانه خارجا من القلعة الى القباب ، وهيأ الخلجى الضياف ونزل الى مظفر شاه السلطان وسأله التشريف بالطلوع فأجابه ، فلما فرغ من الضيافة دخل به فى الابنية التى هى من آثار ابيه وجده فأعجب بها وترحم عليهم ثم جلسا فى جانب منه وشكره الخلجى وقال الحمد لله الذى ارانى بهمتك ما كنت اتمناه بأعدائى ولم يبق لى الآن ارب فى شيء من الدنيا ، والسلطان اولى بالملك منى وما كان له فهو لى فأسئلك قبول ذلك وللسلطان ان يقيم به من شاء فالتفت السلطان اليه وقال له ان اول خطوة خطوتها الى الجهة كانت لله تعالى والثانية كانت لنصرتك وقد نلتها فالله يبارك لك فيه ويعينك عليه ، وسأله أركان دولته ان يستأثر بدولة الخلجى فالتفت الى محمود وقال له احفظ باب القلعة برجال لايدعون أحداً يدخلها بعد نزولى حتى من ينتسب الى وانصرف الى بلاده (١)

العالم بلاد لايعيش فيها الا من يجعل فى جنبه قلبا كانما قد من حجر ، لايعرف الحنان والرحمة ولا يعرف معنى الحب والايثار ، والمؤمن وحده هو الذى يحمل فى جنبه قلبا يفيض حنانا ورحمة للبشر ، ويجمع بين الرحمة والشدة والصلابة والرقة وشكيمة الاسد وحنان الام ، تخلق بأخلاق الله فجمع بين الرأفة والعزة والجمال والجلال ، وتخلق بأخلاق الرسول ﷺ فلايغضب لنفسه حتى اذا تعدى

---

(١) نزهة الخواطر : السيد عبدالحى الحسنى ج ٤

الحق لم يقم لغضبه شيء فبينما تراه فى ساحة الجهاد كانه نار فى حطب أو منجل فى حقل ليس له عاطفة ولا قلب ، اذا به تراه فى الصلاة تهمل عيناه ويغلى صدره كالمرجل وتراه يرق للضعيف ويحنو على الارملة واليتيم ، قد جمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل إلا أن الاولى له سجية وطبيعة والثانية له وسيلة وذريعة فهو ينشد بلسان الحال « وانى لحلو تعتريني مرارة » لايدع السماحة والكرم حتى مع العدو ولايترك التمسك بالاخلاق العالية حتى فى ساحة القتال .

هذا صلاح الدين الذى سار مثلا فى شدته وجلادته ، تستغيث به امرأة اختطف ولدها فهى تبكى بكاء الثكلى ، فيرق لها بطل حطين ويطوف بها على القبائل والمنازل حتى تعرف ابنها وتضمه الى صدرها (١) ويهدى الى قرنه واعدى عدوه فى العالم رتشرد الثلج والفواكه فى مرضه (٢)

الناس من خوف الموت فى الموت وأشد من الموت ، يعدون هذه الحياة رأس مالهم ومنتهى آمالهم فليس من الغريب ان يود احدهم لو يعمر ألف سنة ، حتى اذا جاءه الموت خرج من الدنيا حزينا متلهفا على مايفارقه كارها مستبشعا لما يستقبله

أما المؤمن فهو دائم الحنين الى ربه ، شديد الشوق الى جنته ، لايبالى أوقع عليه الموت أم على الموت وقع ، يستقبل الموت باسم الثغر جذل القلب فرحا مستبشرا كانما هو خارج من السجن او عائد الى الوطن

لما طعن جبار بن سلمى عامر بن فهيرة يوم بئر معونة فانفذه قال عامر . فزت ورب الكعبة (٣) ولما ضرب ابن ملجم على بن أبى طالب. قال فزت ورب الكعبه (٤)

قام ابو عبيدة فى الناس فى طاعون عمواس ، فقال : ايها الناس ان هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وان أباعبيدة سأل الله ان يقسم له منه حظه فطعن فمات واستخلف على الناس معاذ بن جبل فقام خطيبا بعده فقال : ايها الناس ان هذا الوجع رحمة بكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وان معاذا يسأل الله أن يقسم لآل معاذ حظهم فطعن عبد الرحمن فمات ثم قام فدعا

---

(١) (٢) الفتح القسى فى الفتح القدسى : لعماد الدين الكاتب

(٣) طبقات ابن سعد (٤) كتاب المتفجعين لمحمود بن محمد بن الفضل

به لنفسه فطعن فى راحته فلقد كان يقبلها ثم يقول ما أحب ان لى بما فيك شيئا من الدنيا (١)

وحضر بلالا الوفاة فقالت امرأته واحزناه . قال بل واطرباه، غدا نلقى الاحبة محمداً وحزبه (٢) وكذلك روى عن عمار انه كان يقول ذلك عند وفاته (٣)

المؤمن هو الذى يستطيع أن يفضل الفقر على الغنى والآخرة على الدنيا والنسيئة على النقد الحاضر والغيب على الشهود والدين على الحياة فى كل دور من أدوار التاريخ مهما بلغت المادة أوجها .

ليس لقطر من الاقطار أن يمن على الاسلام بأنه فسح له فى أرضه ، وانما الفضل والمنة للاسلام على كل قطر فقد ألقى عليه درساً فى التوحيد الذى لا يشوبه شرك ، وحب الانسانية العامة واحترامها ، ووسع افق خياله فصار يرى للحياة معنى غير معنى ، وللانسانية مستوى أرفع من مستواها القديم وعالما افسح من وكره الذى يعيش فيه ، انه وضع عن كل أمة اصرها والاغلال التى كانت عليها وانقذها من العنصرية والجنسية والوطنية وعبادة المال والبيوتات والاشجار والاحجار والحيوانات والانهار والارواح والاجرام السماوية ،ومن الرهبنة الفاتكة بالمدنية والعزبة القاطعة للنسل وهو الذى كسر طلسم الاوهام التى مضى عليها قرون ودرج عليها أجيال اطلق العقل من أساره ورفع الحجر عن العلم ونسخ احتكار البيوتات للدين ورسم فى الذهن منزلة العمل الفردى والسعى الشخصى واستقلال كل انسان بعمله ومسئوليته ومن الذى يستطيع ان ينكر أن الفضل فى تقدم العالم وقطع مراحل المدنيه والعلم انما يعود الى الاسلام ، ومن الذى يجهل اليوم أن الفضل فى تقدم اوربا وتخلصها من رق الاحبار والرهبان وسلاسل الكنيسة والحكم المطلق ، وفى العكوف على العلوم الطبيعية والتجربة ، والخروج من الهمجية إلى الحضارة انما يعود إلى الأندلس الاسلامية التى ظلت قرونا طوالا مشعل الثقافة ومنبع العلم ومدرسة الفن والتهذيب فى العصور المظلمة ! إن كلمات

---

(١) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ٢١٦ (٢) الغزالى فى الاحياء عن ابن ابى الدنيا
(٣) الطبرانى

العدل والمساواة والانسانية والعالمية منتشرة ذائعة اليوم فى كل ناحية من نواحى الهند وبارزة على كل صفحة من صفحات أدبائها وكتابها ، وخفيفة على لسان كل خطيب ومتكلم ، ومن ذا يكابر فى أن الاسلام هو الذى عرف هذه الكلمات إلى أهل هذه البلاد وسعى فى رواجها وذيوعها فى بلاد لم تكن تعرف هذه الكلمات ومعانيها ،

أن المسلمين ليسوا نسلا أو شعبا فحسب ، وليس الاسلام عادات وتقاليد وتراثا يتوارثه ولد عن أبيه ، أنه دعوة ورسالة وحياة وعقيدة تقتضى بالطبع أن يكون نظر المسلم أوسع من الماديات والمحسوسات ومن عالم النفوس والبطون ووطنه أوسع من المنطقة الصغيرة التى ولد فيها ، وان يكون قلبه عامرا بحب كل انسان كائنا من كان ، وأن لا تكون الاوطان والانساب عائقا فى سبيل حبه وعطفه وأن لا يكون سعيه منحصرا فى نطاق الحياة الضيق ، ويلزم لكل من يدين بهذا الدين أن يحمل للبشرية رسالة للروح والقلب والعاطفة والسياسة والاجتماع ويملك قوة أخلاقية تراقبها فى النور والظلام والوحدة والاجتماع والعجز والمقدرة عنده أساس متين من العلم وبينات ومحكمات فى المدنية ، وحياة نبى كان ولا يزال المثل الكامل للبشرية فى مختلف ظروفه وأحواله ومختلف عصوره وأجياله ، وكل عصر وقطر ومفزع الانسانية فى كل ساعة عصيبة وكلما حلت بها أزمة عجزت عن حلها العقول البشرية والنظم الاجتماعية والسياسية :

إذا حجب الليل النهار , وهجمت جنود الهوى من كل جانب وهزمت الفضيلة والاخلاق ، وإذا أصبح الانسان ينحر أخاه لأجل فلس أو لاجل قرص ، وإذا اصبحت الشعوب الكبيرة تزدرد الشعوب الصغيرة فى سبيل الجشع او الخيلاء وإذا صار وثن المال يعبد على قارعة الطريق ، وإذا ضحى بألوف من الناس على انصاب الجنسية والوطنية ، وإذا حال الانسان بين الانسان ورزقه ، إذا التهبت نار الشهوات وانطفأ نور القلب ، اذا نسى الانسان الموت وعكف على الحياة يعبدها إذا غلا الجماد والمعادن ورخص الانسان فى سوق العالم فصارت المدن العامرة تسوى بها الأرض وألوف من البشر يقتلون فى دقائق وثوان بالقنبلة الذرية : إذا تغلبت الامم الاوروبية على العالم وجعلته بيت المقامرين أو سوق الجزارين

وعبثت بالانسانية عبث الوليد بجانب القرطاس ، وتلاعبت بالامم كالكرى ، إذا ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت ايدى الناس ، هنالك يستصرخ هذا الكون المؤمن ويستغيث به وهنالك تناديه الانسانية باسم الاسلام الذى طلع كالصبح الصادق فى ظلام الليل الحالك وباسم محمد ﷺ الذى أغاث الله به الانسانية فى احتضارها وانتحارها وحفظ به مهجة الانسانية وأدال به من الجاهلية الجهلاء .

فهل يسمع المؤمن فى جزيرة العرب التى اشرقت منها شمس الاسلام وفى حواضر البلاد العربية فى آسيا وافريقيا وفى الاقطار الاسلامية عامة صراخ الانسانية وعويلها فيهب من نومه العميق الطويل الذى مله العالم ويثب كالاسد وينقض كالصقر على اعداء الانسانية ، أنه بذلك لجدير وبحول الله على ذلك قدير ، فهو معقل الانسانية ومنتهى الرجاء وأمين الله فى الارض وخليفة الأنبياء

يدعون سياراً إذا أحمر القنا ، ولكل يوم كريهة سيار



(٢)

المد والجزر

فى تاريخ الاسلام

« لماذا تتابعت النكبات على المسلمين ؟ . . . إن التاريخ أصدق ناطق فاستنبئوه . . . لقد كان العرب قبل الاسلام هملا بين الناس . لا يقام لهم عند الشعوب ميزان ، جاء الاسلام فجعلهم الفاتحين السادة القادة الذين رفعوا لواء الاسلام فى المشارق والمغارب ، بما أدهش وحير وأسر ، لقلة الزاد عند المسلمين والعتاد والعدد ، مع كثرة الأعداء وتشعب الأنحاء ، ولقصر الوقت وسرعة التقدم ، وما نجحوا إلا لأنهم أصبحوا بنعمة الايمان رجال دعوة وأصحاب مبدأ ، يعرضون عن الدنيا إلى الاخرة ، ويرضون الله اولا واخيرا ، ويعملون لهداية العالمين بنفوس مؤمنة ، وارواح تهفو إلى لقاء الله كما يهفو الضال إلى مثواه ، فليسوا طلاب شهوة او مجد ، ولكنهم طلاب شهادة .

وما ضعف المسلمون وذلوا إلا يوم فقدوا الايمان والزهد والجهاد وحب الشهادة ، ولن يعرفوا طريق العزة إلا باستعادة هذه الصفات » .

الشرباصى

المد والجزر
فى تاريخ الاسلام

كان العرب قبل الإسلام أمة كادت تكون خاملة منعزلة عن العالم، قد فصلتها عن العالم المتمدن المعمور البحار من ثلاث جوانب، وصحراء من جانب وكانت من الانحطاط والانقسام والضعة والخمول بمكان لاتطمح فيه حينا من الدهر إلى غزو البلاد، ولا تحلم بالانتصار على الدول المجاورة لهـا فى المنام ولاتحدث به نفسها يوماً من الأيام.

هذا، ودولتا فارس والروم يومئذ سيدتا العالم، وزعيمتا الشرق والغرب، وقد أحاطت ممتلكاتها بشبه جزيرة العرب إحاطة الثوار بالمعصم، وإنما زهد الفرس والرومان فى فتح هذه الجزيرة وعورتها، وقلة خيراتها ومواردها، وما يكلفهم ذلك من رجال واموال، هم فى غنى عن إنفاقها فى هذه الصحراء المجدبة، وفى هذه الأمة الفقيرة، وإنما اكتفوا برقابتهم الساسية عليها، وبإماراتهم التى أنشأوها على ثغور هذه الجزيرة الواسعة ولهواتها.

هكذا كانت هذة الأمة التى كانت لتمثل دورا مدهشا فى تاريخ العالم عن قريب، كانت أمة بدوية موهوبة ـ ولكن مواهب ضائعة ـ لايرفع الناس بأفرادها فى العراق والشام ومصر رأسا، إذا مروا بهم تجارا أو ممتازين ولا يحسبون لهم حسابا. ولا يهمهم شانهم إلا مايهم أهل المدن شأن الاعراب المستغربين فى اللباس والصورة واللسان، ولا يذكرونهم ـ إذا ذكروهم ـ إلا بذلاقة لسانهم وفصاحة منطقهم وشجاعتهم، وجودة خيلهم ووفائها، إلى غير ذلك مما قد تعرفه الأمم المتمدنة عن الأمم البدويه.

وإذا أردت أن تعرف منزلة العرب عند اهل العالم، قبل الاسلام والنظرة التى كان ينظر إليهم بها جيرانهم فى الشرق والشمال فاستعرض الآراء التى أبداها رجال ذلك العصر من أهل البصر والمعرفة، ووافق عليها العرب أنفسهم وزادوا عليها.

فما حفظه لنا التاريخ من هذه الآراء: ماقال امبراطور الدولة الفارسية لسفراء المسلمين.

جاء فى كتاب البداية والنهاية لابن كثير الدمشقى، بعد ماساق حديث رسل المسلمين فى مجلس يزدجرد.

قال: «فتكلم يزدجرد فقال: إنى لا أعلم فى الارض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا، ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى ليكفونا كم، لاتغزوكم فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا. وإن كان الجهد دها كم، فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسونا كم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم».

فقال المغيرة بن شعبة:

«أيها الملك، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما. فأما ماذكرت من سوء الحال. فما كان أسوأ حالا منا، وأما جوعنا: فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، ونرى ذلك طعامنا. وأما المنازل فانما هى ظهر الارض، ولا نلبس إلا ماغزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا، وان يبغى بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حيه، كراهية أن تأكل من طعامه وكانت حالنا قبل اليوم على ماذكرت لك فبعث الله إلينا رجلا الخ (١)».

وجاء فى هذا الكتاب أيضا:

«قد بعث أمير الفرس يطلب رجلا من المسلمين ليكلمه. فذهب اليه المغيرة ابن شعبة - فذكر من عظم مارأى عليه من لبسه ومجلسه وفيما خاطبه به من الكلام فى احتقار العرب واستهانته بهم وانهم كانوا أطول الناس جوعا وأقلهم دارا وقدرا - وقال: وما يمنع هؤلاء الاساورة (٢) حولى أن ينتظموكم بالنشاب إلا بجا من جيفكم، فإن تذهبوا نخل عنكم وإن تأبوا نذركم مصارعكم. قال. فتشهدت وحمدت الله، وقلت: لقد كنا أسوأ حالا مما ذكرت حتى بعث الله رسوله الخ (٣)»

---

(١) البدايه والنهاية ج ٧ ص ٤٢

(٢) الاسوار والأسوار عند الفرس: القائد، أساور واساورة

(٣) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٠٩

وفى هذا الكتاب أيضا :

«ذكر الوليد بن مسلم : ان ماهان طلب خالداً ليبرز اليه فيما بين الصفين فيجتمعا فى مصلحة ، فقال ماهان : إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع ، فهلموا إلى أن أعطى كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعاما ، وترجعون إلى بلادكم . فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها (١)

وهذا كله يدل على ما كان يساوى العرب عند الروم ، وعلى ما كان لهم من قيمة ومنزلة عندهم

ولكن سرعان ما تغيرت الأحوال وانقلبت الحقائق وبطلت التجارب السابقة وتاه العقل ، إذ خرج هؤلاء الأعراب من صحرائهم يفتحون ويقهرون ويغلبون ويخضعون ، تدفق هذا السيل من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم عاصمة العرب الاسلامية ، لاحدى عشر سنة للهجرة النبوية واثنتين وثلاثين وست مائة لميلاد المسيح ، فغلب كل شيء اعترضه فى الطريق وطما على السهل والجبل ولم تكن جيوش فارس والروم ومصر وغيرها المعدودة بمئات الألوف الشاكية السلاح ، الشديدة البطش التى كانت الارض تزلزل بها زلزالا ، لم تكن هذه الجنود المجندة إلا حشائش فى هذا التيار الجارف ، فلم تعق سيره ولم تغير مجراه ، حتى فاض فى مروج الشام وفلسطين وسهول العراق وفارس وربوع مصر والمغرب الأقصى وأودية هملايا ، سال هذا السيل القوى بالمدنيات العتيقة والحكومات المنظمة القوية ، والامم العريقة فى المجد والسلطان فأصبحت خبرا بعد عين (وجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق)

خرج العرب من جزيرتهم فاحتكوا بالفرس والروم ، وكان العرب يكرهون وجوههم (٢) ويرهبون سطوتهم فى ديارهم ، ولكن هانوا عليهم فى هذه المرة فغزوهم فى عقر دارهم ، ونزلوا بساحتهم ، فما لبثوا أن مزقوا جوعهم شر ممزق

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٠

(٢) قال الطبرى : عندما اراد عمر فتح فارس تخوفوا من الفرس وعجبوا كيف يستطيعون ان يحاربوهم ؟ وكان وجه فارس من اكره الوجوه اليهم واثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم (تاريخ الطبرى ج ٤ : ٦١)

وثلوا عروشهم ، ووطأوا تيجان ملوكهم ، وفتحوا كنوزهم واقتسموا أموالهم وتراث ملوكهم وسبوا ذراريهم ، ومزقوا رداء فخرهم وعظمتهم فلم يرفع أبداً، وكسروا شوكتهم فلم تعد أبدا ، وهلك كسرى فلا كسرى بعده ، وهلك قيصر فلا قيصر بعده (واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها)

خرج هؤلاء العرب من جزيرتهم فى ثياب صفيقة مرقعة ، ونعال وضيعة مخصوفة يتقلدون سيوفا بالية الأجفان رثة المحامل ، على خيل بعضها عارية الظهور متقطعة الغرز ، قد بلغ بهم البعد عن المدنية إلى حد أنهم كانو يحسبون الكافور ملحا وربما استعمله بعضهم فى العجين (١) فما لبثوا ان ملكوا الدنيا ، وامتلكوا ناصية امم بعيدة الشأو فى المدينة : انقلب رعاء الشاة والأبل رعاة لأرقى طوائف البشر فى العلم والمدنية ، والنظام وصار هؤلاء اساتذتهم فى العلوم والآداب والأخلاق والتهذيب ، وحقت كلمة الله (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) .

هذه القوة القاهرة بعد ذلك الضعف المخزى وهذا النشاط الغريب بعد ذلك الجمود العجيب ، وهذا الانتباه السريع بعد ذلك السبات العميق ، لغزة من الغاز التاريخ وقد اتفقت كلمة المؤرخين على ان هذا الحادث أغرب ماوقع فى التاريخ الانسانى ، وإليك بعض ماقال المؤرخون الاوربيون .

يقول المؤرخ جبون : «بقوة واحدة وبنجاح واحد زحف العرب على خلفاء اغسطس (فى الروم) واصطخر (فى فارس) واصبحت الدولتان المتنافستان فى ساعة واحدة فريسة لعدو لم يزل موضع الازدراء والاحتقار منهما ، فى عشر سنوات من أيام حكم عمر اخضع العرب لسلطانه ستا وثلاثين ألفا من المدن والقلاع ، خربو أربعة آلاف كنيسة ومعبد للكفار وأنشأوا أربعة عشر ألفاً من المساجد لعبادة المسلمين ، على رأس قرن من هجرة محمد ﷺ من مكة امتد

---

(١) قال ابن كثير : كان المسلمون يجيئون بعض تلك الدور ، فيجدون البيت ملانا إلى اعلاه من اوانى الذهب والفضة ، ويجدون من الكافور شيئا كثيرا فيحسبوه ملحاً ، وربما استعمله بعضهم فى العجين فوجدوه مرا حتى تبينوا امره (البداية ج ٧ ص ٦٧)

سلطان خلفائه من الهند الى المحيط الاطلانطيكى ؛ وترفرف علم الاسلام على أقطار مختلفة نائية . كفارس وسورية ومصر وافريقيا وأسبانيا (١)

ويقول ستودارد الأميركى فى كتابه حاضر العالم الاسلامى : « كاد يكون نبأ نشوء الاسلام النبأ الأعجب الذى دون فى تاريخ الإنسان ، ظهر الاسلام فى أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان وبلاد منحطة الشأن ، فلم يمض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر فى نصف الأرض ممزقاً ممالك عالية الذرى مترامية الأطراف ، وهادما أديانا قديمة كرت عليها الحقب والأجيال ، ومغيرا ما بنفوس الأمم والاقوام وبانيا عالما حديثا متراص الأركان - هو عالم الإسلام

كلما زدنا استقصاء باحثين فى سر تقدم الاسلام وتعاليه زادنا ذلك العجب العجاب بهرا ، فارتددنا عنه بأطراف حاسرة . عرفنا أن سائر الاديان العظمى إنما نشأت ثم انشأت تسير فى سبيلها سيرا بطيئا ملاقية كل صعب ، حتى كان أن قيض الله لكل دين منها ما أراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ فى تأييده والذب عنه ، حتى رسخت أركانه ومنعت جوانبه ، بطل النصرانية قسطنطين ، والبوذية « اسوكا » والمزدكيه قيا كسرو ، كل منهم ملك جبار أيد دينه الذى انتحله بما استطاع من القوة والأيد ، إنما ليس الأمر كذلك فى الإسلام ، الإسلام الذى نشأ فى بلاد صحراوية ، تجوب فيافيها شتى القبائل الرحالة التى لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة فى التاريخ ، فلسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته فى جهات الأرض مجتازا أفدح الخطوب واصعب العقبات ، دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ، ولا أزر مشدود وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الاسلام نصر مبينا عجيبا ، إذ لم يكد يمضى على ظهوره أكثر من قرنين ؛ حتى باتت راية الاسلام خفاقة من « البرانس » حتى (حملايا) ومن صحارى أواسط آسية حتى صحارى أواسط أفريقيه (٢)

ويقول مؤرخ عصرى (ه ، ا ، ل فيشر) فى كتابه تاريخ أوربا : « لم يكن

---

(١) انحطاط رومة وسقوطها المجلد الخامس ص ٤٧٤ — ٤٧٥ طبع اكسفورد .

(٢) حاضر العالم الاسلامى ج ١ تعريب الاستاذ عجاج نويهض مقدمة فى نشوء الاسلام

هنالك (فى جزيرة العرب قبل الاسلام) أثر لحكومة عربية أو جيش منتظم أو لطموح سياسى عام ، كان العرب شعراء خياليين ، محاربين ، وتجاراً ، لم يكونوا سياسيين إنهم لم يجدوا فى دينهم قوة تثبتهم أو توحدهم ، انهم كانوا على نظام منحط من الشرك ، بعد مائة سنة حمل هؤلاء المتوحشون الخاملون لأنفسهم قوة عالمية عظيمة ، إنهم فتحوا سورية ومصر ، ودوخرا وقلبوا فارس ملكوا تركستان الغربية وجزءاً من بنجاب انهم انتزعوا أفريقية من البازنطيين والبربر وأسبانيا من القوط هددوا فرنسا فى الغرب والقسطنطينية فى الشرق مخرت أساطيلهم المصنوعة فى الاسكندرية وموانى سورية مياه البحر المتوسط اكتسحت الجزائر اليونانية وتحدت القوة البحرية للامبراطوريه البازنطينية لم يقاومهم إلا الفرس وبربر جبال الاطلس ، إنهم شقوا طريقهم بسهولة حتى صعب فى بداية القرن الثامن المسيحى أن يقف فى وجههم واقف ، ويعرقل سيرهم فى الفتح والاستيلاء ، لم يعد البحر المتوسط بحر الروم ، بل أصبح حوضا عثمانيا لاسيطرة فيه لغير الترك ووجدت الدول النصرانية من اقصى أوربا الى أقصاها منذرة مهددة بحضارة شرقية مبنية على دين شرقى »( )

ويقول مؤلف اشتراكى : « ان الانسان ليدهش إذا تأمل السرعة الغريبة التى تغلب بها طوائف صغيرة من الرحالين ، الذين خرجوا من صحراء العرب مشتعلين بحماسة دينية على أقوى دولتين فى الزمن القديم ، لم يمض خمسون سنة على بعثة محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى غرز أتباعه علم الفتح على حدود الهند فى جانب ، وعلى ساحل البحر الاطلانطيكى فى جانب آخر ، إن خلفاء دمشق الاولين حكموا على امبرطورية لم تكن لتقطع فى أقل من خمسة اشهر على اسرع جمل على نهاية القرن الاول للهجرة كان الخلفاء أقوى ملوك العالم .

كل نبى جاء بمعجزات آية لما يقول ، وبرهانا على صدقه ولكن محمداً ﷺ هو أعظم الانبياء واجلهم إذ كان انتشار الاسلام أكبر آيات الانبياء وأروعها إعجابا وخرقا للعادة ، إن أمبراطورية أغسطس الرومية بعدما وسعها بطلها

---

(1) H. A. L. Fisher, "A History of Europe" P.P. 137,138

تراجان نتيجة فتوح عظيمة فى سبعة قرون ولكنها لاتساوى المملكة العربية التى أسست فى أقل من قرن ان أمبراطورية الاسكندر لم تكن فى اتساعها إلا كسراً من كسور مملكة الخلفاء الواسعة ،ان الامبراطورية الفارسية قاومت الروم زهاء ألف سنة ولكنها غلبت وسقطت أمام سيف الله فى أقل من عشر سنوات (١)

والآن ننظر فى هذا الحادث الغريب نظراعلميا تحليليا ونبحث عن اسبابه الحقيقية.

الجنود والدول فى هذا العالم المادى تغلب الجنود والدول فى الغالب لوفرة عددها ، أو بزيادة عدتها وعتادها ولانها احسن فى الشكة والسلاح وفى التنظيمات العسكرية وفائقة فى النظام الحربى ؛ فنتناول جميع هذه العلل المادية التى يرجع اليها الفضل فى انتصار الجيوش والدول عامة ونبحث فيها علة علة :

أما العدد فمعلوم انه كانت النسبة بعيدة بين المقاتلين فى العدد فى جميع المواقف الحاسمة والمعارك الفاصلة فى كفاح الاسلام والنصرانية والمجوسية وكان الروم والفرس أضعاف عدد المسلمين فى أكثر الوقائع. هذه اليرموك كان الروم الذين نفروا لقتال المسلمين يبلغ عددهم الى مائة ألف وثمانين ألفا وفى رواية مائتى ألف وفى رواية أربعين ومائتى ألف وأقل ماروى عن عددهم عشرون ومائة ألف وأكثر ماذكر عن المسلمين أنهم كانوا أربعا وعشرين ألفا كذلك كانت النسبة بعيدة فى وقعة القادسية ،وهى اختها فى العراق والنتيجة معلومة ومايوم حليمة بسر.

وقد اعترف بقلة المسلمين ووفرة جنود الروم والفرس المؤرخون جميعاولم يعللوا الفتح الاسلامى الغريب فى التاريخ بكثرة عدد مقاتلة المسلمين جاء فى الفصل الرابع للأستاذين « غود فروا دمونبين » و « بلانونوف »

« إن العرب الذين أفاضوا من الجزيرة لفتح الأمصار لم يكونوا عصائب لاتحصى ولاتعد تدفقت على الشرق المتمدن فقد أحصى مؤرخوا العرب الجيش الأول للمسلمين فى اليرموك بثلاثة آلاف ثم ارسل اليهم الخليفة بنجدة أبلغتهم ٧٥٠٠ مقاتل وأخيرا تتام عددهم ٢٤ ألفا وأماعدد الروم فقال العرب : إنه كان مائة ألف وقيل ١٢٠ الفا وقيل ٢٠٠ ألف مقاتل ولم يزده مؤرخو بيزنطية على ٤٠ ألفا

(1) M. N. Roy "Historical Role of Islam" P P 4,5.9,7

وعلى كل حال كان العدد الاكبر لاعداء العرب وهكذا فى حروب فارس» (١)

ومعلوم أن جزيرة العرب قليلة العمران بالنسبة إلى مساحتها واتساع رقعتها ومعظمها صحراء ، ورمال وعساء ، وارض قاحلة جرداء ، اما البلاد التى زحف عليها المسلمون ورموا فيها بأنفسهم ، فهى من اخصب بلاد الله مستبحرة العمران مكتظة بالسكان وكانت خليتها تعسل حينا بعد حين وتقطع بعوثا اثر بعوث . وتتدفق سيول من الجيوش والمقاتله وتأتيهم الميرة من كل مكان لا تكاد تنتهى ، وكان العرب الغرباء كنقطة مغمورة فى بحار من الاعداء نازحين عن بلادهم ، منقطعين عن مركزهم ولا يصلهم المدد الا بشق الأنفس وبعد شهور ، لا يجدون من الميرة الا ما يتغلبون عليه وينتزعون من ايدى اعدائهم انتزاعا ، فلو تطوعت جزيرة العرب كلها لقتال الروم والفرس ، ونفر جميع اهاليها للجهاد فى سبيل الله - على ان ذلك من المستحيل - لما وقعوا من العالم النصرانى والمجوسى - وهما أكثر من نصف الأرض المعمورة - بمكان ، فكيف والذين تطوعوا للجهاد ما كانوا نصف عشر عمران الجزيرة ؟ .

أما العدد والعتاد ، فكان العرب افقر فيها واقل منهم فى العدد فلم تكن هناك جنود مرتزقة ، ولا جيوش منظمة تعبئها الحكومة وتسلحها من عندها ، ثم تبعثها كاملة السلاح تامة الجهاز ، انما كان متطوعون ؛ يجهزون انفسهم ، وينفرون شوقا الى الجهاد فى سبيل الله ورجاء ثوابه ، ومنهم من لا يجد راحلة ويلتمس عند غيره فلا يجد ، فيقعد متلهفا على مايفوته من سعادة الجهاد فى سبيل الله ؛ وقد انزل الله فيهم (ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا اجد ما احملكم عليه ، تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا ان لا يجدوا ماينفقون - : براءة) .

وكان المسلمون تزدريهم اعين الروم والفرس لما خرجوا لقتالهم « وكانوا يسخرون من سلاحهم ونبالهم وثيابهم ويضحكون . قال ابو وائل احد الذين شهدوا القادسية - كان الفرس يقولون للمسلمين : لا يد لكم ، ولا قوة ، ولا سلاح ، ماجاء بكم ارجعوا قلنا : مانحن براجعين . فكانوا يضحكون من قبلنا ، ويقولون : دوك دوك ،

(١) حاضر العالم الاسلامى حواشى الأمير شكيب ارسلان ج ١ ص ٢٩

وشبهونا بالمغازل (١)

قال ابن كثير : وكان سعد قد بعث طائفة من أصحابه الى كسرى يدعونه الى الله قبل الوقعة ، فاستأذنوا على كسرى، فأذن لهم ، وخرج أهل البلد ينظرون الى أشكالهم وأرديتهم على عواتقهم، وسياطهم بأيديهم والنعال فى أرجلهم، وخيولهم الضعيفة وخبطها الأرض بأرجلها ، وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب ، كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عددها وعددها(٢) :

ويقول « ماكس مايرهوف » فى تأليفة (العالم الاسلامى) .

يكاد يكون مستحيلا أن نفهم كيف أن اعرابا منقسمين الى عشائر ، ليست عندهم العدد والأعتدة اللازمة يهزمون فى مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مرارا فى الأعداد والعتاد وكانوا يقاتلونهم وهم كتائب منظمة (٣) » .

ومما قيل فى تعليل غلبة المسلمين ان العرب كانوا فائقين فى نظامهم الحربى على الروم والفرس فى ذلك العصر . وكانت كتائبهم أحسن تنظيما وتدريبا . وأفضل نظاما عسكريا وأكثر انقيادا لأمرائها وقوادها من العساكر الرومية والفارسية وأن الفضل فى انتصار العرب مع قلتهم وانكسار الروم والفرس رغم كثرتهم يرجع الى مراس العرب للقتال وضراوتهم بالحروب وولوعهم بالغزو والنهب ونشأتهم الجاهليه الأولى . النشأة الحربية المحضة .

هذا الكلام يشبه أن يكون وجيها وأكثر صوابا من التعليلات السابقه . ولكنك اذا انتقدته كباحث ومؤرخ وجدته مغالطة كبيرة يغالط بها الكتاب الاوروبيون ويتعللون بها . وقد يفهمون . وقد لا يفهمون

قد ثبت فى تواريخ القرون الوسطى أن الروم (وكذا الفرس) كانوا راقين فى نظامهم الحربى فى ذلك العصر وقد بلغت الدولة البزنطية فى بداية القرن السابع

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٤

(٢) ايضا ج ٧ ص ٤٢

(٣) حاضر العالم الاسلامى حواشى الأمير شكيب ارسلان ، ج ١ ص ٢٩

لمسيحي زهوها وأوج فتوحها الحربية . ففى ذلك العهد دحر الروم الفرس وردوهم على أعقابهم وجاسوا خلال الديار وعبر هرقل جبال الكرد ونهر دجله غازيا منتصرا وبعد حرب دامية فى ساباط ومعركة فاصلة فى نينوا دخل دستجرد وتقدم إلى المدائن وغرز علم الفتح الرومى فى قلب فارس وذلك كله فى سنة ٦٢٥ م يعنى قبل زحف المسلمين على الشام باثنى عشرة سنة فقط ،

وقد أفادت هذه الحروب الطاحنة التى بدأت من سنة ٦٠٣ الفريقين (الروم وفارس) من جهة الحرب والتدريب كثيرا ، وقد استفاد الفريقان أساليب جديدة للقتال وحنكة وحسن بلاء فى الحرب وتعلم كل فريق منهما ومن الآخر كما كان الشأن فى الحروب الصليبية فى القرون الوسطى .

وقد اعترف جبون مؤرخ رومة الكبير بفضل الروم على العرب فى الحروب ونظامها فقد قال فى كتابه (المجلد الخامس ص ٤٧٨) .

« أنا ألاحظ هنا وسأكرره مرارا أن هجوم العرب وقتالهم لم يكن مثل الرومان واليونان الذين كانت لهم رجالة قوية مستحكمة ، كانت القوة العسكريه للعرب مركبة من فرسان ورماة وكانت الحرب التى قد تقاطعها مبارزات شخصية ومناوشات من القتال قد تستمر وتطول بغير حادثة فاصلة إلى عدة أيام » .

أما ماقيل من مراس العرب للقتال وتدربهم عليها بفضل حروبهم القبلية التى كادت تكون مستمرة وتمكنهم من الانتصار على الروم والفرس فلم تكن هذه المناوشات والغزوات الطائفية بحيث يتمكن بها العرب من قهر الامبراطوريتين الكبيرتين الرومية والفارسية وقد خضع العرب مع هذا كله للحبشة ولفارس فى جنوب العرب وانسحبوا أمام جيوش أبرهة فى زحفه على مكة وأن الله هو الذى تولى حراسة بيته وكفى قريشا القتال وجعل اصحاب الفيل كعصف مأكول ولماذا لم يجسر العرب على الخروج من جزيرتهم وغزو البلاد وفتحها فى هذه القرون الطويله التى قضوها فى شبه جزيرتهم فى خمود وخمول تام؟ لماذا لم يهاجموا الروم والفرس كما فعلوا بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بغير تراخ ؟ ولماذا لبثوا الاحقاب والأجيال الطوال « معكومين على رأس حجر بين الاسدين فارس والروم »

كما يقول قتادة أحد التابعين الكبار (١)

أما ماقيل عن النظام فلا ننكر حسن نظام العرب فى حروبهم وغزواتهم وروح التعاون والتفادى السارى فى جنودهم والطاعة والانقياد لامراء الجيوش وقوادها والتفانى والاستماتة فى سبيل الله ولكن يعلم الخبير أن النظام ليس شيئا صناعيا ميكانيكيا يحصل بمجرد تنظيمات عسكرية وفنون حربيه وقواعد رياضية ولو صففت الحجارة تصفيفا بديعا أو أقيمت العمد والسوارى على نظام فنى رياضى كامل لم تنفع شيئا ، وقد قرأت فى التاريخ أن الروم والفرس قد كانوا فى بعض المواقف الجليلة يسلسلون أنفسهم ويحفرون لهم فى الارض لئلا يندحروا أو ينسحبوا من ميدان القتال ثم لا يغنى عنهم هذا شيئا ، فليس الشأن كله فى النظام فى الحرب إنما الشأن الكبير التأثير البليغ للروح والمبدأ والغاية التى يقاتل لاجلها الجنود وتمكنها من النفوس وهى منبع القوة الخارقة للعادة ومبعث الشجاعة التى تبهر العقول وسبب الفتوح العظيمة التى يندهش لها المؤرخون والفلاسفة .

وعن هذا المنبع نبحث فى نفوس العرب الاولين الذين خرجوا لفتح العالم وفتحوا نصف الارض فى نصف القرن .

منبع هذه القوة وسبب هذا الانقلاب العظيم الذى لا يوجد له مثيل فى التاريخ إن العرب أصبحوا بفضل تعليم محمد ﷺ أصحاب دين ورسالة فبعثوا بعثا جديدا وخلقوا من جديد وانقلبوا فى داخل أنفسهم فانقلبت لهم الدنيا غير ما كانت وانقلبوا غير ما كانوا رأوا إلى العالم حولهم - وطالما رأوه فى جاهليتهم بدهشة واستغراب - فاذا الفساد ضارب أطنابه ، واذا الظلم ماد رواقه واذا الظلام مخيم على العالم كله وكل شىء فى غير محله فمقتوه وأبغضوه ، ورأوا الى الامم وطوائف البشر حول جزيرتهم - وطالما رأوها بتعظيم وإجلال وغبطة واكبار - فاذا أنعام ودواب فى صورة البشر (يأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم) واذا صور ودمى قد كسيت ملابس الانسان فاستهانوا بهم وبما هم فيه من ترف ونعيم وزخارف وزينة وقرأوا قول الله تعالى (ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد (زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه)

(١) تفسير ابن جرير ج ٤ ص ٢٣

الله ليعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون)

وعلموا أن الله قد ابتعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور ومن عبادة العباد الى عبادة الله ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الاديان الى عدل الاسلام واورثهم ارضهم وديارهم وأموالهم وارضا لم يطؤها واستخلفهم فى الارض ومكنهم فيها ، وقرأوا قول الله تعالى : (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون) وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من خوفهم امنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا) وتعلقوا بقول نبيهم ﷺ .

(ان الله زوى لى الارض فرأيت مشارقها ومغاربها . وان امتى سيبلغ ملكها ماروى لى منها واعطيت الكنزين الاحمر والابيض (١)

وقوله (اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله (٢)

وعرفوا أن الله قد ضمن لهم بالنصر ووعدهم بالفتح فوثقوا بنصر الله ووعد رسوله واستهانوا بالقلة والكثرة واستخفوا بالمخاوف والاخطار وذكروا قول الله تعالى (ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقوله (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)

وقد فطن بهذه الحقيقة بعض معاصرى المسلمين واعدائهم واهل النظر والتمييز فى ذلك العصر من الروم والفرس . فمن ذلك ما روى ابن كثير ان هرقل لما انتهى اليه خبر زحف المسلمين قال لأهل الشام ويحكم ان هؤلاء اهل دين جديد وانهم لاقبل لاحد منهم فأطيعونى وصالحوهم بما يصالحونكم على نصف خراج الشام ويبقى لكم جبال الروم وان انتم ابيتم ذلك اخذوا منكم الشام وضيقوا عليكم

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) رواه الترمذى .

جبال الروم (١)

أما عقيدة المسلمين أنهم مبعوثون إلى الأمم موكلون باخراج الناس الى عبادة الله وحده وأن الله متولى نصرهم ضامن بظفرهم فستلمحه وتسلمه فى كل ما كان يصدر من المسلمين من كلام وفعال ومن ثقتهم وسكينة قلوبهم .

ومن ذلك ماروى أن الامراء لما كتبوا إلى أبى بكر وعمر فى اليرموك يعلمونهما بما وقع من الامر العظيم وما يقابلون خطر داهم وعدد لاقبل لهم به . كتب اليهم أن اجتمعوا وكونوا جندا واحدا والقوا جنود المشركين فأنتم أنصار الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ولن يؤتى مثلكم عن قله ولكن من تلقاء الذنوب فاحترسوا منها (٢) :

ولما استشار عمر فى أصحابه فى مسيره الى العراق بوقعة نهاوند قال له على ابن ابى طالب « يا أمير المؤمنين إن هذا الامر لم يكن نصره ولاخذلانه بكثرة ولا قلة هو دينه الذى أظهر وجنده الذى أعزه وأمده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ فنحن على موعود من الله والله منجز وعده وناصر جنده (٣)

ولذلك كانوا يخطرون بأنفسهم ويأتون بأعاجيب وأعمال خارقة للعادة ثقة بنصر الله واعتمادا على موعوده . حتى أنهم خاضوا بخيولهم فى دجلة وكانوا يتحدثون مطمئنين كأنهم سائرين على البر . وكان منظرا غريبا ، وجعل الفرس يقولون ديوان آمدند يعنون الجن والعفاريت ويقولون ديوانه ديوانه يعنون المجانين وكان الذى يساير سعد بن أبى وقاص فى الماء سلمان الفارسى فجعل سعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل . والله لينصرن الله وليه وليظهرن الله دينه وليهزمن الله عدوه . ان لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات فقال له سلمان : ان الاسلام جديد . ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر . أما والذى نفس سليمان بيده ليخرجن منه أفواجا كما دخلوا أفواجا فخرجوا منه كما قال سلمان : لم يغرق منهم أحد ولم يفقدوا شيئا (٤)

بعثت هذه العقيدة والنفيسة طمانينة فى انفسهم وسكينة فى قلوبهم وشجاعة

---

(١) و (٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥

(٣) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٠٧

(٤) البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٦

خارقة للعادة واستهانة بالعدد والعدد وعدم عبادة للمادة وعدم اتخاذ الأسباب أربابا وعرفوا أنهم يقاتلون بقوة الدين ويظفرون ويغلبون ببركة الاسلام فكانوا شديدي الاحتفاظ كثيري الاعتداد بها ، يتمثل ذلك فيما قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ، روى يونس عن ابن اسحاق . أن المسلمين بلغهم أن هرقل نزل بمآب فى مائة ألف من الروم ومائة ألف من المستعربة (والمسلمون لايزيدون على ثلاثة آلاف) فلما بلغ المسلمين ذلك أقاموا على معان ليلتين ينظرون فى أمرهم وقالوا نكتب الى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له قال : فشجع الناس عبد الله بن رواحة وقال . ياقوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ومانقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذى اكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور واما شهادة قال فقال الناس قد والله صدق ابن رواحه فمضى الناس (١)

كانوا واثقين بما وعدهم به رسولهم - صلى الله عليه وسلم - من الفتوح العظيمة فإذا رأوا من ذلك شيئا قالوا (هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانا وتسليما) .

جاء رجل الى أبى عبيدة يوم اليرموك فقال . إنى قد تهيأت لأمرى فهل لك من حاجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال . نعم تقرئه عنى السلام وتقول يارسول الله . إنا قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا (٢)

وقد بلغوا فى قلة الاهتمام بالعدد والاستخفاف بشأن العدو وكثرته حتى كأنهم من حديد والعدو من طين وخزف أو كأنهم مناجل والعلوج (٣) حقول ومزارع قد أينعت وحان حصادها .

قال المؤرخون لما أقبل خالد من العراق قال رجل من نصارى العرب لخالد بن الوليد ما أكثر الروم وأقل المسلمين ؟! فقال خالد . ويلك أتخوفنى

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٤٣

(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٢

(٣) العلج الرجل الضخم القوى من كفار العجم وقد يطلق على الكافر عموما

بالروم ؟ إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال والله لوددت أن الأشقر برأ من توجعه وأنهم أضعفوا فى العدد ـ وكان فرسة قد حفا واشتكى فى مجيئه من العراق (١)

وقد ارتفع هؤلاء وعلت هممهم وكبرت نفوسهم وعظم الدين والحقيقة والأخلاق فى نظرهم حتى صغرت الدنيا وزخارفها فى عيونهم وهان أهلها عليهم فكانوا يرون الى أبهة الملوك وفخفخة السلاطين ومافيه أغنياء هاتين المدنيتين ومترفوها من الأثاث والرياش وزخارف الدنيا كأنهم يرون إلى لعب الصبيان وكأنهم يرون الدمى والبنات المصنوعة من ورق أو قماش فى مواكبها وزينتها لايهولهم شىء ولا يعظم فى عينهم شىء .

أرسل سعد قبل القادسية ربعى بن عامر رسولا الى رستم قائد الجيوش الفارسيه وأميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابى الحرير وأظهر اليواقيت واللالىء الثمينة والزينة العظيمة وعليه تاجه وغير ذلك من الامتعة الثمينة وقد جلس على سرير من ذهب ودخل ربعى بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسايد وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضة على رأسه فقالوا له ضع سلاحك فقال : إنى لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتمونى فان تركتمونى هكذا وإلا رجعت فقال رستم ائذنوا له . فأقبل يتوكا على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها فقالوا له ماجاء بكم فقال الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الاديان الى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضى الى موعود الله . قالوا وماموعود الله ؟ قال . الجنه لمن مات على قتال من ابى والظفر لمن يبقى فقال رستم قد سمعت مقالتكم فهل لكم ان تؤخروا هذا الامر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟ قال نعم كم أحب إليكم يوما أو يومين ؟ قال لا بل حتى نكاتب أهل رأينا رؤساء قومنا فقال . ماسن لنا رسول الله صلى الله

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٩

عليه وسلم أن نؤخر الاعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث فانظر فى امرك وامرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل فقال أسيدهم انت ؟ قال لا ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجيز أدناهم على أعلاهم فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل ؟ فقالوا معاذ الله أن تميل الى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال : ويلكم لا تنظروا الى الثياب وانظروا إلى الرأى والكلام والسيرة إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل ويصونون الاحساب (١)

دخل المغيرة بن شعبة على رستم وقعد معه على السرير فنخروا وصاحوا فقال إن هذا لم يزدنى رفعة ولم ينقص صاحبكم فقال رستم صدق (٢)

وكان من اكبر أنصار المسلمين أخلاقهم العالية وسيرتهم الملكية فكانوا يمتازون بها ويعرفون بها أينما رحلوا ونزلوا وكانت هذه الاخلاق طليعة جيوشهم تسخر لهم القلوب والنفوس وتشرح لهم الصدور قبل أن تعمل سيوفهم ورماحهم ونبالهم والذين كانوا يشهدونها ويجربونها كانوا يشهدون أن هؤلاء سيغلبون ويملكون الدنيا وأن الفرق بينهم وبين أقرانهم كالفرق بين البهائم والملائكة .

روى أحمد بن مروان المالكى فى المجالسة بسنده عن أبى إسحاق قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء فقال هرقل وهو على انطاكية لما قدمت منهزمة الروم ويلكم اخبرونى عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشرا مثلكم ؟ قالوا بلى . قال فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا بل نحن أكثر منهم أضعافا فى كل موطن قال فما بالكم تنهزمون ؟ فقال شيخ من عظمائهم من أجل انهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزنى ونركب الحرام وننقض العهد ونغصب ونظلم ونأمر بالسخط وننهى عما يرضى الله ونفسد فى الارض فقال . أنت صدقتنى

وسأل هرقل هذا رجلا كان قد أسر مع المسلمين فقال اخبرنى عن هؤلاء

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٠

(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٠

القوم فقال أخبرك كأنك تنظر اليهم هم فرسان بالنهار رهبان بالليل لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ولا يدخلون إلا بسلام يقفون على من حاربوا حتى يأتوا عليه فقال . لئن كنت صدقتني ليملكن موضع قدمى هاتين (١)

ووصف رجل من الروم المسلمين لرجل من أمراء الروم فقال . جئتك من عند رجال دقاق يركبون خيولا عتاقا اما الليل فرهبان وأما النهار ففرسان يريشون النبل ويبرونها ويثقفون القنا لو حدثت جليسك حديثا مافهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر قال فالتفت الى أصحابه وقال اتاكم منهم مالا طاقة لكم به (٢)

حببتهم هذه الاخلاق الى أعدائهم الذين كانوا يقاتلونهم حتى ان كان هؤلاء ليؤثرونهم على بني جلدتهم وأبناء ملتهم ويتمنون لهم الظفر ويدفعون عنهم العدو ويتطوعون لمصالحهم .

قال البلاذري في فتوح البلدان حدثني أبو حفص الدمشقي قال. حدثنا سعيد ابن عبد العزيز قال بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم اليهم بوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ماكانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على امركم فقال أهل حمص لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جنود هرقل عن المدينة مع عاملكم ونهض اليهود فقالوا والتوراة لايدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد فأغلقوا الابواب وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا : ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه وإلا فانا مابقي على امرنا للمسلمين عدد فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلسين (٢) فلعبوا وأدوا الخراج (٣)

. . .

هذا ولما طال على المسلمين الأمد وقست قلوبهم ونسوا وتناسوا مالاجله بعثهم الله على كثرة من الناس وتوافر من امم الارض وهو قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)

---

(١) البداية والنهاية ج٧ ص ٥٣

(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٦

(٣) قلس القوم استقبلوا الولاة عند قدومهم بضرب الدف والغناء واصناف اللهو

( ) فتوح البلدان ص ١٣٧ طبع بريل

ونسوا ما لأجله خرجوا من جزيرتهم يخرجون الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحدة وصاروا يحكمون الناس حكم الناس على الناس وصاروا يعيشون حياة لاهية حرة حياة من لا يعرف نبيا ولا يؤمن برسالة ووحى ولا يرجو حساباً ولا يخشى معاداً وأشبهوا الأمم الجاهلية التى خرجوا يقاتلونها بالامس عادوا فقلدوها فى مدنيتها واجتماعها وسياستها وأخلاقها ومناهج حياتها وفى كثير مما مقتها الله لأجله وخذلها وأصبحوا لا هم لهم ولا شغل إلا الاكل والشرب والتناسل وأصبحوا كرعايا الناس ليس لهم فرقان ولا نور يمشون به بين الناس ، وأشبهت ملوكهم وأمراؤهم جبابرتها وفراعنتها وأغنياؤهم مترفيها وأكابر مجرميها وكاد يسبق فجارهم فجارها ، تحاسد وبغضاء ومنافسة فى السلطان وتكالب على حطام الدنيا وإخلاد الى الترف والنعيم وإعراض عن الآخرة ، وسفك للدماء وهتك للاعراض وهضم للحقوق وغدر بالعهود والذمم وتعد عن حدود الله واعانة للظالم وجنف فى الحكومات والمظالم وتبذير لأموال الله وعموم الفواحش والمنكرات وابتداع للجرائم وابداع فى الجناية مما يحتاج بسطه إلى مجلدات ، فهانوا اذا على الله مع أسمائهم الاسلامية ورغم وجود الصالحين فيهم وظهور بعض الشعائر الدينية والواجبات الشرعيه فى بلادهم وهانوا على الناس رغم مملكتهم الواسعه وجيوشهم الكثيفة ، وخزائنهم العامرة ورغم تقدمهم فى الحضارة ومظاهرها الكثيرة ، فقل إكرام الناس لهم وهيبتهم إياهم وتجاسروا عليهم ؛ قال رتبيل ملك رخج وسجستان لرسل يزيد بن عبد الملك وقد جاؤا اليه يطالبونه بالخراج « ما فعل قوم كانوا يأتون خماص البطون سود الوجوه من الصلاة ، نعالهم خوض » ؟ قالوا انقرضوا قال: « أولئك أوفى منكم عهدا وأشد بأسا ، وان كنتم أحسن منهم وجوها » ثم لم يعط أحدا من عمال بنى أميه ولا عمال أبى مسلم على سجستان من تلك الاتاوة شيئا (١)

فإذا كان هذا فى القرن الثانى فما ظنك بقرون بعده ؟!

حتى اذا بلغ السيل الزبى وتضاعف كل ما ذكرنا وأفسد المسلمون فى الأرض بعد اصلاحها وآسفوا الله ، بعث عليهم عباداً له أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار . سلط عليهم المغول والتتار أشق الامم وأخملها وأجهلها وأوحشها . فوضعوا فيهم

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٠١ طبع بريل

السيف وأجروا من دمائهم سيولا وأنهارا وأقاموا من رءوسهم صروحا وتلالا وفعلوا بهم الأفاعيل وأجلسوهم الخوف فتمكن من قلوبهم الوهل والجبن حتى أصبحوا لا يصدقون بهزيمة التتر قال ابن الاثير: سمع عن بعض أكابرهم أنه قال من حدثك أن التتر انهزموا فلا تصدقه . قال ووقع رعبهم فى قلوب الناس حتى كان أحدهم اذ لقى جماعة يقتلهم واحدا واحدا وهم دهشون ودخلت امرأة من التتر دارا وقتلت جماعه من اهلها وهم يظنونها رجلا ودخل واحد منهم دربا فيه مائه رجل فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم ولم يمد أحد يده اليه بسوء ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلا ولا كثيرا نعوذ بالله من الخذلان . وحكى ان أحدهم اخذ رجلا ولم يجد ما يقتله به فقال له ضع راسك على هذا الحجر ولا تبرح فوضع رأسه وبقى الى ان اتى التترى بسيف وقتله . قال ابن الاثير وامثال ذلك كثيرة :

واليك ما قال ابن الاثير قبل ان يسرد وقائع هذه النازلة .

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا اقدم إليه رجلا وأوخر أخرى فمن الذى يسهل عليه ان يكتب نعى الاسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك فياليت امى لم تلدنى ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . . . هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثه العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الايام والليالى عن مثلها . عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن اهل العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها . . . ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى ان ينقرض العالم وتفنى الدنيا الخ »

ولكن مثل هذه الحادثة لم تستطع ان تنبه المسلمين ولم يفيقوا من سكرتهم ولم يغيروا ما بأنفسهم حتى يغير الله مابهم وحق عليهم قول ربهم (لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون) وقوله (فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) وقوله (ولقد اخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) وما زالوا منهمكين فيما هم فيه من غفلة ولهو وظلم حتى قول ابن الأثير :

، فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصرا من عنده فما نرى فى ملوك الاسلام من له رغبة فى الجهاد ولا فى نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندى من العدو وقال الله تعالى : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) .

ومما يجب ان يلاحظ القارىء ويعتبر به المعتبر ان المسلمين فى هذه الظلماء التى غشيتهم والفتنه التى عمتهم كلما افاقوا سكرتهم واصلحوا شأنهم وأزاحوا العلل وصمدوا فى وجه العدو واستنزلوا النصر هزموا التتر الذين لم يكونوا يعرفون الهزيمة ولا يصدق الناس بانهزامهم فقد هزمهم جلال الدين خوارزمشاه ثلاث مرات وهزمهم الظاهر بيبرس غير ما مرة وهزمهم الملك الناصر صاحب مصر بمرج الصفر . وقال السيوطى عن وقعة عين جالوت : (فهزم التتار شر هزيمة وانتصر المسلمون ولله الحمد وقتل من التتار مقتلة عظيمة وولوا الأدبار وطمع الناس فيهم يتخطفونهم وينهبونهم (١) .

ولم يزدد المسلمون الا ضعفا ولم تزدد اخلاقهم على مر الايام الا انحطاطاً وتدهورا ولا احوالهم وشئونهم الا فسادا حتى اصبحوا أمة جوفاء لا روح فيها ولا دم . وكانوا كصرح عظيم من خشب منخور قائم لا يزال يورى الناس ويهول من بعيد ، اوكدوحة قد تأكلت جذورها ونخر جذعها العظيم ولم تنقلع بعد . واصبحت بلادهم مالا سائبا لا مانع له واصبحت دولهم فريسة لكل مفترس وطعمة لكل آكل وحق قول النبى ﷺ :

(يوشك الامم ان تداعى عليكم كما تداعى الآكلة الى قصعتها فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال بل انتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قال قائل يارسول الله وما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكراهة الموت (١))

واستمر المسلمون بهذا الحال وزيادة حتى اغار عليهم فى القرن الثامن عشر

---

(١) تاريخ الخلفاء (١) رواه ابو داوٗد عن ثوبان رضى الله عنه

المسيحي الأمم الأوربية النصرانية الجاهليه. المتحضرة الوحشيه الكاسية العارية (١) فسلموها مفاتيح ملكهم واعتزلوا فى مصلحتها عن قيادة العالم

وقد بلغ المسلمون من الانحطاط الخلقي منزلة أن وجد فيهم أفراد خانوا أمتهم وشروا بلادهم بثمن بخس دراهم معدودة وتطوعوا فى جنود العدو يفتحون بلادهم للاجنبي على حسابهم

ولكن هذا الهجوم الغربي كان أشد تأثيرا وأعمق اثرا وأبعد مدى من الهجوم الشرقي (المغولي والتتاري) فكاد يخمد كل جمرة فى قلوبهم لم تخمدها العواصف طيلة هذه القرون وبقيت كامنة فى الرماد تخبو مرة وتلتهب اخرى

فتش عقلائهم عن منابع القوة الكامنة فى نفوس المسلمين وقلوبهم فوجدوا ان اكبر منبع القوة والحياة هو (الايمان) وشهدوا مافعل الايمان قديما وما اظهر من معجزات وخوارق وما هو خليق بأن يفعل فعادوه وسلطوا على المسلمين عدوين هما افتك بهم وأضر لهم من المغول والتتار ومن الوباء الفاتك. الاول: هو الشك وضعف اليقين الذى لاشيء ادعى للضعف والجبن منه والثاني: ما نعبر عنه بالذل النفسى وهو ان صار المسلمون يشعرون بالذل والهوان فى داخل انفسهم وفى اعماق قلوبهم ويزدرون بكل ما يتصل بهم من دين وتهذيب واخلاق ويستحيون من انفسهم ويؤمنون بفضل الأوربيين فى كل شيء ويعتقدون فيهم كل خير ولا يكادون يعترفون بنقص وعيبهم فى ناحية من نواحى الحياة ولا يصدقون بانهزامهم وفشلهم فى ساعة من ساعات الدهر وإذا تمكن هذا الذل من نفوس امة فقد ماتت وان كنت تراها تغدو وتروح وتأكل وتعيش.

وابتلى المسلمون فى هذه المرة - بتأثير الحضارة الغربية والفلسفة الغربية بعبادة المادة وحب الدنيا والجرى وراء النفع العاجل وتقديم المصالح الشخصية والمنافع المادية على المبادىء والاخلاق شأن الامم الاوربيه الجاهلية فكانت هذه الاخلاق وهذه النفسية والتربية مانعا من الجهاد فى سبيل الله واعلاء كلمته ومن تحمل المشاق وتجرع المرائر ومكابدة الأهوال والخسائر فى سبيل المبدأ الصحيح والعقيدة السامية

---

(١) المطلع على تاريخ حضارة هذه الامم وطبيعتها يصدق هذه الصفات المتناقضة

كان نتيجة هذا كله أن ظهر جيل فى المسلمين ، متنور الذهن ، ولكن مظلم الروح أجوف القلب ، ضعيف اليقين ، قليل الدين قليل الصبر والجد ، ضعيف الارادة والخلق ، يبيع دينه بدنياه ، وآجله بعاجله ويبيع أمته وبلاده بمنافعه الشخصية وبجاه وعزة وهمية ، ضعيف الثقة بنفسه وأمته ، عظيم الاتكال ، كثير الاستناد إلى غيره

(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم)

هؤلاء هم الذين نشروا فى المسلمين الجبن والوهن ، وصرفوا المسلمين من الاتكال على الله ، ثم الاعتماد على أنفسهم إلى الاعتماد على غيرهم والتكفف لديهم والالتجاء فى مواقع الخطر اليهم ، وأطفئوا فى قلوبهم شعلة الجهاد فى سبيل الله ، والحمية للدين ، وابدلوها بالوطنية العليلة ، والجنسية الناعسة ، وأبدلوا اجنونها الذى بعث الحكمة من مرقدها ، وأطلق العقل من إسارة ، والذى تمكن مما لم يتمكن منه العقل والعلم فى آلاف من السنين ، ابدلوا هذا الجنون الحكيم بعقل ناقص عليل لا يعرف إلا الموانع والعراقيل .

وقد ظهر هذا التحول العظيم فى العقيدة والنفسيه والإفلاس فى الروح والايمان فى شر مظاهره فى حرب فلسطين ، فكان فضيحة للعالم العربى فى القرن الرابع عشر الهجرى ، كما كان انكسار المسلمين وفشلهم الذريع امام ازحف التتارى فضيحة للعالم الاسلامى فى القرن الثامن فقد اجتمعت سبع دول عربية لتحارب الصهيونية وتدافع عن وطن عربى اسلامى مقدس ، عن القبلة الأولى وعن المسجد الثالث الذى تشد اليه الرحال ، وعن جزيرة العرب والاقطار العربية التى أصبحت مهددة بالخطر الصهيونى ، فكانت حرب فلسطين دفاعا عن حياة وشرف وعن دين وعقيدة، وكان العالم العربى بأسرة ازاء دويلة صغيرة لم تستقر بعد ، واتجهت الانظار الى مسرح فلسطين ، وانتظر الناس معركة مثل معركه اليرموك او وقعة مثل وقعة حطين. ولماذا لا ينتظرونها والأمة هى الأمة ، والعقيدة هى العقيدة مع زيادة فائقة فى العدد والعدد ، فلماذا لا ينتصر العرب وهم عالم ؟ ولماذا لا يقضون على عدوهم وهو حفنة من المشردين؟

ولكنهم نسوا مافعلت الايام وما فعلت التربية ، وما فعلت الدول والزعامة السياسية ، وما فعلت المادية بالامة العربية فى هـذا العصر ، لقد تقدم العرب

الى معركة اليرموك حقا ، ولكن بغير الايمان الذى تقدم به اسلافهم الى هذه المعركة فى العصر الاول.

لقد تقدموا إلى وقعة كانت وقعة حاسمة كحطين ـ لو ظفر العرب ـ ولكنهم تقدموا بغير الروح التى تقدم بها صلاح الدين وجنده المؤمن المجاهد : تقدموا بقلوب خاوية تكره الموت ، وتحب الحياة ، واهواء متشتتة ، وكلمة متفرقة ، يريدون ان يربحوا النصر ولا يخسروا شيئا وان يحافظوا على شرفهم ولا يخاطروا بشىء ؛ كل يعتقد ان غيره هو المسئول عن الحرب وعن الغلبه والهزيمة ؛ ثم هم يقاتلون وحبلهم فى يد غيرهم ، اذا ارخى قليلا تقدموا ، واذا جره تأخروا ، واذا قال حاربوا حاربوا واذا قيل اصطلحوا اصطلحوا وماهكذا يكتسب الظفر ويقهر العدو

اوردها سعد وسعد مشتمل   ماهكذا تورد ياسعد الإبل

وبقى العالم متطلعا الى ماقرأه فى تاريخ الجهاد الاسلامى من روائع الايمان وخوارق الشجاعة والصبر ، والاستهانة بالحياة والبسالة والبطولة والاستقبال للموت ، والتمنى للشهادة ، وحسن النظام ، وروح الاطاعة والايثار ، فلم ير من ذلك شيئا ، الا لمعات وإشراقات للايمان كانت تظهر من بعض المتطوعين فى حرب فلسطين والاخوان المجاهدين ، تجندوا وتطوعوا للحرب بدافع الايمان ، والدفاع عن الاسلام ؛ وحملتهم الحمية الدينية على المغامرة ، ودفعتهم الى ميدان الحرب ، فشرفوا الدين وارعبوا القلوب ، واعادوا التاريخ القديم ، وبرهنوا على ان الايمان لايزال المنبع الفياض للقوة والنظام ، وان عنده من القوة والنفوذ والتنظيم وروح المقاومة والجهاد ماليس عند الدول الكبيرة المنظمة .

لقد ثبت مما ذكرناه فى هذا الكتاب ، وما سردناه من الامثلة والاخبار ، وشهادات التاريخ ومشاهدات هذا العصر ـ وما حرب فلسطين منا ببعيد ـ ان المد والجزر فى تاريخ الاسلام واحوال المسلمين تابعان للمد والجزر فى الايمان وقوة معنوياتهم التى تنبثق من الدين وان منبع قوة هذه الامة فى باطنها ، وهو القلب والروح ، فإذا عمر القلب بالايمان بالله ورسوله واليوم الاخر ، وتركت الروح التعاليم الدين والاخلاق الاسلامية . وجاش الصدر بالحمية الدينية جيشان المرجل واخذ المسلمون عدتهم من القوة المادية واعدوا للعدو ما استطاعوا ، وادركوا

ماعليه العالم من جور وظلم ومن جهالة وسفاهة وضلال فى الدين والدنيا وعلموا أن الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الاسلام والعالم قد عاد جاهليا كما بدا « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس » فأشفقوا عليه ورأوا كأن العالم فى حريق ولا ماء إلا عندهم فسعوا به يطفئون النار التى عمت الدنيا ونسوا فى سبيل ذلك لذاتهم وتكدر عيشهم ، وطار نومهم ، وجن جنونهم ، فعند ذلك يتحولون قوة خارقة للعادة لا يفلها العالم ، ولو سمى بأسرة وجميع شعوبه وجنوده ودوله ويصيرون قضاء الله الغالب وقدره المحتوم وكلمته العليا ، « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وأن جندنا لهم الغالبون » « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » .



(٣)

الى ممثلى البلاد الاسلامية

ما جاء للمسلمون إلى الدنيا ليزرعوا او يصنعوا إو يتاجروا او يمتلكوا ، وإن تكن امور الحياة الطيبة جزءاً من دعوتهم، بل جاءوا ليكونوا ثمة يهدون بأمر الله ، ويدعون الحيارى إلى صراطه المستقيم ، وليأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ويؤمنوا بالله ويجاهدوا فى سبيله ، ولذلك كان هتاف الرسول فى الأزمة : (اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد) .

وتحققت السيادة للمسلمين يوم اقبلوا على ربهم داعين عابدين مستنصرين : ثم ذل ،الأخلاق لأنهم اعرضوا عن ربهم واستجابوا لشهوات الحياة ! . .

وإن القلة الذين صنعوا الأعاجيب فى غزوات الاسلام وميادين العمل لله يستطيعون ان يبعثوا فيكم يامسلمى اليوم ، فهل تريدون ؟) .

الشرباصى

الى ممثلى البلاد الاسلامية

عرجت على المؤتمر الثقافى العام الذى قد اشترك فيه ممثلو البلاد وبعثات الأمم ووفود النوادى فرأيت معرضا للجنسيات والوطنيات والحضارات ورأيتكم أيها السادة المسلمون! شامة بين الناس لا لانكم تمتازون عن زملائكم فى الشارة والباس بل لانكم تمثلون تلك الامة العظيمة التى كانت ولا تزال شامة بين الامم.

كان العالم قبل ثلاثة عشر قرنا سائرا سيره الطبيعى لاينكر من امره شىء فكانت القرى والمدن عامرة بالسكان وكانت العواصم الكبرى زاخرة العمران شامخة البنيان وكانت الحرف البشرية ووجوه المعاش فى ازدهار وانتشار. كانت الزراعة وكانت التجارة وكانت الصناعة فبينما كانت سكة الفلاح فى شغل ونشاط كانت القوافل التجارية غادية رائحة بين الشرق والغرب وكانت الأسواق مشحونة بالمتاجر والبضائع وكان الصناعون مكبين على أعمالهم. وكانت الحكومات والامارات والدول غنية بأموالها ورجالها. لكل وظيفة رجل كفؤ بل رجال أكفاء وكان على وجه الارض كل نوع من البشر وكل لون من الحياة وكل مظهر من مظاهر المدنية لا يرى فى الحياة الانسانية المادية عوز أو فراغ. ولم تكن فى المدنية وظيفة شاغرة يترشح لها مترشح جديد وكانت كأس الحياة مترعة لاتطلب المزيد

فى هذه الحال ظهرت أمة فى جزيرة العرب ووجد نوع جديد من البشر وكأنى بالامم المعاصرة وهى تتسائل. أى داع إلى ظهور أمة جديدة والامم على وجه الارض كثيرة منتشرة وماشغل هذه الامة الحديثة ومامهمتها فى العالم؟!

وكأنى بها تقول. إذا كانت هذه الامة إنما بعثت للزراعة وعمارة الارض فقد كان فى فلاحى الطائف وأكارى مدينة يثرب وزراع وادى الفرات والنيل وربوع كنكا وجمناغنى عن أمة زراعة جديدة فقد أصبحت أراضى هؤلاء الفلاحين وبلادهم جنة تدر لبنا وعسلا واذا كان المسلمون إنما بعثوا ليشتغلوا بالزراعة فقط فلماذا لم يبعثوا فى العراق وفى مصر والهندوهى بلاد مخصبة زراعية ولماذا كان مبعثهم فى واد غير زرع؟

وإذا كانت هذه الامة إنما بعثت للتجارة فقد كان فى يهود يثرب وفى أقباط الشام وفى أقباط مصر وتجار السند كفاية فقد أحكموا فن التجاره وانتشروا فى العالم وإذا كانوا قد بعثوا ليشتغلوا بالتجارة حقا فلماذا لم يبعثوا على طريق القوافل التجارية وبقرب من أسواق التجارة الكبرى ؟

وإذا كانت هذه الامة إنما بعثت للصناعة واعمال اليد فقد كان فى قيون البلاد المتمدنة وأصحاب الصنائع والحرف — وإنهم لكثير — غنى وكفاية !

وإذا كانت هذه الامة إنما بعثت لتنضم إلى الحكومات الرومية والايرانيه وتشغل أفرادها وظائف هذه الحكومات ومناصبها فقد كان فى أهل الشام وفارس غنى وكفايه فى الادارة وانهم يزاحمون الاجانب بالمناكب ويدفعونهم بالراح

وإذا كانت هذه الامة بعثت لعيش هنىء ومطعم شهى ومشرب مرىء وملبس رضى ومسكن بهى لالشىء آخر وإنما مناها وهمها أن تلق لبوسا ومطعما لم تكن بدعا من الامم وكانت منافسة لنا فى ميدان الحياة فحق لنا أن نقاتلها ونذودها عن مناهلنا وقد ضاقت بنا فكيف تسع أمة جديدة ؟

وإذا كانت هذه الامة إنما تحاول ملكا أو تريد أن تؤسس دولة فيجب أن تصرح بذلك وتتخذ له طريق الملوك والفاتحين ولا تتظاهر بالدين .

وإن الطريق إلى كل ذلك من زراعة وتجارة وصناعة ووظيفة وحياة بذخ وترف وملك وشرف — غير الطريق التى سلكتها هذه الامة الجديدة — فقد سفهت أحلامنا وعابت آلهتنا ونعت على عقائدنا وأخلاقنا وأعمالنا ودعت إلى دين جديد وسارت فى سبيل ذلك فى شوك وقتاد وجاهدت فى غير جهاد .

لقد كان الطريق إلى الرفاهية أو الحكومة مسلوكة معبدة قد سلكتها الامم من قبل ومشى عليها الملوك وأصحاب الطموح فى عصرهم فمن حال بينها وبين هذه الطريق ؟ وما الذى عدل بها عن جادة الحياة وهى معلومة واضحه ؟ !

هذا . ما أظنه تناجى به ضمير الانسان العاقل فى فجر الاسلام ولا ألومه . ولا أستغرب هذا السؤال فان هذا السوال طبعى ينبغى أن يهجس فى قلب الانسان وينطق به اللسان عند كل ناشئة فلماذا لاينشأ هذا السوال عند ظهور أمة بأسرها ؟

ماهو الجواب ؟ إذا كان الجواب فى الاثبات وإذا كان مبعث هذه الأمة فى الحقيقة لشىء مما ذكرناه ولم تكن لهذه الأمة مهمة جديدة فى العالم ورسالة خاصة إلى الأمم كانت هذه الأمة حقا من فضول الأمم ومن المتطفلين على مائدة العالم!

ولكن لم يبعثها لهذا ولا ذاك ، والأمة والاشخاص لايبعثون لشىء من هذا وإنما هى من طبائع البشر لاتحتاج إلى نبوة نبى ولا بعثة أمة وجهاد طويل وزلزال عالمى لم يسبق فى التاريخ . زلزال فى المعتقد والاخلاق والميول والنزعات ، وفى نظام الفكر ومنهاج الحياة .

لقد كان مبعثها لغرض سام جدا لمهمة غريبة طال عهد الانسانية بها وتشاغلت امم الانبياء عنها حتى نسيتها وذلك ما خاطب به الله سبحانه وتعالى هذه الامة « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ! فنبه على أن هذه الأمة ليست نابتة نبتت فى الارض كأشجار برية أو حشائش شيطانية بل إنها أمة أخـــرجت ولأمر ماأخرجت ! وإنها لم تظهر لمصلحتها فحسب كسائر الامم بل إنها أخرجت للناس وذلك ماتمتاز به الأمة فى التاريخ فما من أمة إلا وهى وليد أغراضها ورهين بطنها وشهواتها تعيش لاجلها وتموت فى سبيلها أما الامة الاسلامية فهى أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتجاهد فى سبيل الله

ظهرت نواة هذه الامة فى مكة — قلب جزيرة العرب فقام العقلاء من قريش — وهم الآخذون بزمام الحياة فى البلاد — ونثروا كنانة فكرهم وقاسوا الناشئة الجديدة بمقاييسهم التى عرفوها وألفوها ووزنوها فى ميزان الانسانية الذى طالما وزنوا فيه أصحاب الطموح فوجدوهم خفاف الوزن طائشى الكفة ، وذهبوا إلى إمام الدعوة الاسلامية وأول المسلمين فى العالم — صلى الله عليه وسلم — فقال قائلهم .

« إنك قد أتيت قومك بامر عظيم فـــرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها »

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل ، ياأبا الوليد أسمع !)

قال . « يابن أخى ! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الامر مالا جمعنا

لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وإن كنت إنما تريد شرفا سودناك علينا حتى لانقطع امرا دونك وان كنت إنما تريد ملكا ملكناك علينا »،(١)

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك فى هدوء وتأن ، ثم رفضه فى غير شك وتأخير ، ولم يكن هذا العرض من قريش على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب ، بل كان على هذه الامــه التى يمثلها ويقودها . ولم يكن رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرضت قريش رفضا عن نفسه الكريمة فقط ، بل كان رفضا عن أمته إلى آخر الابد .

إقتنعت قريش بهذه المحاورة ويئست من مساومة هذه الامة ولم تعد تعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة وعلى هذه الامة بواسطة ماعرضت من قبل وقطعت منها أملها :

وكان بعد ذلك صراع مستمر ونزاع طويل ، ولم يكن نزاعا فى أغراض المادة ، وشهوات البطن والاستئثار بموارد الرزق والتغلب على الاسواق ، بل كان نزاعا بين الاسلام والجاهليه بمعنى الكلمتين ، نزاعا بــين حياة العبودية والانقياد لله تعالى ولرسوله ، وبين الحياة الحرة المطلقه التى لاتعرف قيد ولاتخشى معادا ولا حسابا

وكان من نتيجة ذلك معركة بدر الحاسمه ، وقد قاد النبى صلى الله عليه وسلم إلى ساحه القتال جيشا لايزيد عده المقاتلين فيه على ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا والجيش المنافس فيه ألف محارب وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم يقينا أن لو وكل المسلمون إلى أنفسهم وقوتهم المادية فالنتيجة معلومة واضحة - نتيجة كل قليل ضعيف أمام قوى كثير العدد !

فزع الرسول الى الله تعالى فى إنابة نبى وإلحاح عبد ودعاء مضطر ، وشفع لهذه العصابة فى كلمات صريحة واضحة نيرة خالدة ، هى خير تعريف لهذه الامة وبيان لمهمتها وغرضها الذى خلقت له

لم يقل رسول الله صلى الله وسلم لو هلكت هذه العصابه وكانت فريسة للعدو ، أقفرت المدينه وأوحشت أسواقها ، وكسدت التجارة ، وبطلت الزراعة

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

أو تعطل شغل من أشغال الحياة ، أو وقفت إدارة الحكومات لم يقل رسول الله ﷺ شيئا من ذلك لان شيئا منها لم يتوقف على المسلمين ولم يقم بهم بل كان قبل وجود المسلمين ولا يزال فى غنى عنهم ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر شيئا بعث المسلمون لاجله وقام بالمسلمين وحدهم فقال « اللهم إن تهلك هذه العصابه لن تعبد »

أجاب الله دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم وقضى بانتصار المسلمين على عدوهم وبقائهم فكأنما كان بقاء المسلمين مشروطا بقيام حياة العبوديه بهم وقيامهم بها فلو انقطعت الصلة بينهم بين العبادة ورواجها وازدهارها فى العالم ، انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة ولم يبق على الله لهم حق وذمة وأصبحوا كسائر الامم خاضعين لنواميس الحياة وسنن الكون بل كانوا أشد جريمة وأقل قيمة من الأمم الاخرى إذ لم يشترط لبقائها وحياتها مثل ما اشترط لهم وكان كما اخبر الله تعالى « قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعائكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً »

وقد حافظ المسلمون على هذا الشرط وبروا بهذا العهد وتذكروا أنهم إنما نصروا على عدوهم وقد كاد يأتى عليهم ويستأصلهم فى ساحة بدر وتركوا على ظهر الأرض لأن عبادة الله منوطة بهم على أرض الله .

بهذه الرسالة انبثوا فى العالم وحملوها إلى الملوك والسوقة والامم . وفى سبيل ذلك هاجروا وجاهدوا ، ولأجل ذلك حاربوا وعاهدوا ، ولم يزالوا يعتقدون أنهم مبعثون من الله الى الامم ، وحاملو راية الاسلام فى العالم .

أرسل سعد قبل القادسية ربعى بن عامر الى رستم ، قائد الجيوش الفارسية وأميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابى وأظهر اليواقيت واللآلى الثمينة والزينة العظيمة وعليه تاجه وغير ذلك من الامتعة الثمينة وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعى بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه فقالوا له : « ضع سلاحك » فقال : « إنى لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتمونى فان تركتمونى هكذا وإلا رجعت فقال رستم : « ائذنوا له » ، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها فقالوا

له : «ماجاءبكم ؟» فقال : «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الاديان الى عدل الاسلام فأرسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ومن أبى قاتلناه ابدا حتى نفضى الى موعود الله» قالوا «ومام موعود الله» ؟ قال «الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى» . (١)

اباح الله للمسلمين الطيبات وفسح لهم فى طرق الكسب ووجوه المعاش ولم يضيق عليهم فى ذلك فقال : «قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من لرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة الى يوم القيامة» وقال : «فاذا قضيتم الصلوة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله» . ولكن الله لم يبعثهم لذلك أمة ولم يرضه لهم غاية ومهمة بل خلقهم للسعى للاخرة وخلق أسباب الحياة لهم قال النبى صلى الله عليه وسلم : «ان الدنيا خلقت لكم وإنكم خلقتم للاخرة» وجعل الحياة واسبابها خاضعة لمهمتهم التى بعثوا لاجلها فاذازاحمتهم فى سبيل مهمتهم أو غلبتهم عليها رفضوها واذا تلكا المسلمون فى ذلك عاتبهم الله عتابا شديدا وقال

«قل ان كان آبائكم وأبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بامره والله لايهدى القوم الفاسقين»

أراد الأنصار ، رضى الله عنهم ان يتفرغوا لاصلاح اموالهم لأيام اكتفاءاً بأنصار الاسلام فعاتبهم الله على ذلك وانزل «ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة»

قال سيدنا ابو ايوب الانصارى رضى الله عنه : «انما نزلت فينا ، معشر الأنصار إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا فى مابيننا لو أقبلنا على اموالنا فأصلحناها ! فأنزل هذه الآية» (٢)

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير

(٢) رواه ابو داؤد فى سننه

ولكن مع الاسف الشديد قد تشاغل المسلمون اليوم بالدنيا كأمم الجاهلية وسعوا وراءها وعقدوا احياتهم بها فاذا اشرفتم على مدنهم وبلادهم من مرقب عال لم تميزوا بينهم وبين افراد امة جاهلية سعوا وراء المادة فى غير اقتصاد وا كتساب من غير احتساب ، سهر فى غير طاعة ، وعمل فى غير نية ، وتجارة فى لهو عن ذكر الله ، وحرفة فى جهل عن دين الله، ووظيفة فى الاخلاص لغير الله وحكومة فى مشاقة حكم الله ، شغل فى ضلالة ، وقعود فى بطالة وحياة فى غفلة وجهالة

هل إذا اطلعتم ، ياسادتى ! على بلاد إسلامية ورأيتم هذه الامة فى غدواتها وروحاتها الى الاسواق والادارات ومصالح الحكومه عرفتم انها امة خلقت لشىء آخر وبعثت لغرض آخر اسمى من هذه الاغراض التى يسعى لها الكافر والمؤمن؟

ان هذا الأسلوب من الحياة لحجة ظاهرة لأهل الجاهليه على المسلمين فلو نطقوا لقالوا « ماذنبنا ، ايها المسلمون ! إذ عرضنا على نبيكم المال والسيادة والملك فأبى ورفض كل ذلك ؟ ! الا نراكم تسعون اليوم وراء الذى رفضه نبيكم بالامس كأنما خلقتم لاجله ؟ فأى الفريقين اشد ذنبا أمن عرض على محمد صلى الله عليه وسلم المال والسيادة والملك تفاديا من الخلاف والنزاع فأبى ورفض أو من تهافت على مارفضه سيده تهافت الظمآن على الماء والفراش على النور ؟

واذا كنتم اليوم لايهمكم الا المال او الجاه او الشرف او حكم على قطعة ارض فلماذا تظاهرتم الامس بالدين واقمتم الدنيا واقعدتموها لاجله وكدرتم علينا صفو العيش ، لقد كنتم وكنا فى غنى عن هـــذه الحروب الطاحنة التى أيتمت البنين وأيمت النساء وأجلت الناس عن الاوطان !

أعيدوا إلينا إذاً تلك الدماء التى أريقت فى ساحة بدر ، وأحد ، وحنين وخيبر ، واليرموك ، والقادسية ؟ وأعيدوا الينا تلك النفوس التى قتلت باسم الدين وأعيدوا الينا تلك الأيام التى كنا نعيش فيها فى وئام وهدوء ، لا نعرف فيها إلا الأكل والشرب وقضاء مآرب النفس !

وما ذا يكون جوابنا لو تعرض أحد من أخلافهم الأحياء وقال : « ماغرّكم أيها المسلمون ! لقد ساهمتمونا فى أسباب الحياة وخلقتم لنا فوق ذلك مشاكل كثيرة

فى الحياة السياسية والاجتماعية ، ولا نراكم تسدون عوزا ، أو تصلحون خللا ، و تلمون شعثا ، أو تقيمون زيغا فى الحياة ؟ .

عفوا ، أيها القراء ، وسماحا ، أيها الكرام ، فقد طال العتاب ، وقديما قال الشاعر العربى :

وفى العتاب حياة بين أقوام

من المعلوم إن حياة الامم ، بالرسالة والدعوة ، وإن الأمة التى لا تحمل رسالة ولا تستصحب دعوة حياتها مصطنعة غير طبعية ، وأنها كورقة انفصلت من شجرتها ، فلا يمكن أن تحيا بسق أو رى «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

إننا أيها القراء ! أمة الحاضر وامة المستقبل ، قد كتب لنا الخلود والنصر ، لأننا اصحاب دعوة ورسالة نبوية ، وهى الرسالة الأبدية التى قضى الله بخلودها وظهورها . فلسنا تحت سيطرة المادة وحكم الزمان بشرط ان نقوم بدعوتنا ونستقل برسالتنا ونعود امة دعوة نبوية كما بدأنا - دعوة فى مابيننا معشر المسلمين ، ودعوة فى غيرنا من الأجانب فى الدين .

لقد تخلفنا عن الأمم المعاصرة فى العلوم الطبعية والاسباب الحربية وفى الاخذ بأسباب الرقى المادى بعدة قرون ، وقد كانت المسابقة بيننا وبينهم كمسابقة الارنب والسلحفاة ، إلا ان الارنب كان ساهرا مع خفته وسرعته ، والسلحفاة نائمة رغم بطئها وثقلها ! فلو جارينا هذه الامم اليوم لاستغرق ذلك قرونا ثم كانت المقارنة بحساب دقيق ، فاذا فاق العدو وسبقنا بشعرة فى القوة المادية والعدد الحربية رجحت كفته لان المادة عمياء وهى من القساوة والحياد التام بمكان لا تفرق فيه بين المحق والمبطل والشريف والوضيع .

ولكن الدعوة والرسالة - وهى الروح التى تقهر المادة وتسخر الاسباب وتستنزل النصر - تأتى بخوارق ومعجزات ، وطالما قهرت القاهر وفتحت الغالب وطالما خضعت الحكومات القاهرة ودانت الملوك الجبابرة بقوة الدعوة والرسالة للصعاليك والصعاليك وقد جربت ذلك هذه الأمة مرتين بوضاحة فى التاريخ .

مرة ، لما خرج العرب من جزيرتهم الى البلاد الرومية والفارسية فى ثياب صفيقة مرقعة وفى نعال وضيعة مخصوفة يحملون سيوفا بالية الاجفان ، رثه المحامل على خيل قصيرة الغرز ، وسرعان ماقهرت دعوتهم ورسالتهم وحياتهم الامم الرومية والفارسية التى كانت كدمى كسيت حـــللا فاخرة ، واعوادا أسندت إلى الجدار لحرمانها من رسالة ، وقعودها عن دعوة . وكان الانتصار فى الاخير للرسالة على النظام ، وللروح على المادة ، وللمعنى على الظاهر .

ومرة ثانية ، لما قهر التتر ـ ذلك الجراد المنتشر ـ العالم الاسلامى ، من أقصاه الى أقصاه ، وخضدوا شوكة المسلمين « فلم تقم لهم قائمة ، ولم يقف فى وجههم واقف ، وكاد المسلمون يصبحون اثرا بعد عين « واستولى اليأس على قلوبهم حتى كان من الأمثال السائرة : « إذا قيل لك ان التتر انهزموا ، فلا تصدق » هنالك فعلت الدعوة الاسلاميه فعلها . ونفذت فيهم . فاذا القاهر يصبح مقهورا . واذا الفاتح مفتوح لدين المفتوحين . واذا التتر يتلفظون بكلمة الاسلام ، ويدينون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . ويصبحون امة اسلامية .

وان الرسالة الاسلامية لتأتى بالمعجزات اليوم وتقهر الامم طوعا ـ لا كرها بسلطانها الروحى ونفوذها العجيب .

ان آباءكم ، ايها السادة المسلمون ! قـــد انتشروا فى عواصم الجاهلية الاولى ومراكزها الكبرى يقولون « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ؛ ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام » وخلصوا الامة الرومية من عبادة المسيح والصليب والاحبار والرهبان والملوك ، وخلصوا الأمة الفارسية من عبادة النار وعبودية البيت الكيانى ، والامة الطوارنية من عبادة الذئب الابيض ، والامة الهندية من عبادة البقر ، وأخرجوها الى عبادة الله وحده وأخرجوها فعلا من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام والعالم ينتظر منذ زمان رسل المسلمين ينتشرون فى عواصم الجاهليـــة الثانية ، يهتفون . « الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة والبطن ، الى عبادة الله وحده ومن ضيق عالم التنافس والاثر والجشع المادى الى سعة عالم القناعة والايثار والزهد ونعيم الروح وطمانينة القلب ، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية الى عدل الاسلام »

هذه هى الدعوة التى تهب بكم يارجال العالم الاسلامى ! وهذه الانسانية البائسة تستصرخكم وتستغيثكم على أعدائها وليس العالم اليوم بأقل ظمأ واقل فاقة إلى الدعوة الاسلامية الصحيحة منه بالامس ، وانه لا يختلف عما كان عليه فى القرن السادس المسيحى ، فهو غنى اليوم فى كل ناحية من نواحى الحياة، وفى جميع الحرف والصناعات ، وقد ضاق بالامم والحكومات وطفح بالأعلام والرايات، وفاض بالحركات والدعوات ، وضجر بطغيان الاهواء والنزعات ، وثورة الاغراض والشهوات . فهو فى ذلك لايقبل علاوة، ولا يسمح بزيادة . فاذا لم يكن المسلمون الا امة من الامم ليست لهم دعوة الى الله ، ولا رسالة للانسانية المحتضرة ، ولم يكن لهم الا أنفسهم وبطونهم ، لم يكن هنالك ما يبرر تاريخهم الماضى الذى افتتح بالدعوة الدينية والجهاد فى سبيلها ، ولا ما يبرر وجودهم فى هذا العصر ، فانما نصروا واستبقوا بشريطة القيام بالعبادة والدعوة اليها .

والدعوة الى الله هى الناحية الوحيدة التى لا تزال فارغة فى خارطة العالم ، لا تشغلها امة ولا دعوة . فاذا عمرها المسلمون احسنوا الى الانسانية والى انفسهم وامسكوا هذا العالم المتمدن الذى قد كاد يهوى فى الهاوية .



(٤)

بين الصورة والحقيقة

« الجسد بلا روح جماد لا ينفع . والصورة بلا حقيقتها وهم وخداع . أو ظل لايغني ولا يفيد . وفى الأرض حقائق صغيرة تماع فى صور كبيرة . ومن الواجب ان تسودها حقيقة الاسلام الكبرى . ونحن اليوم فى زمن لنا فيه رسوم الاسلام واشكاله واقواله ولكن ليس فينا حقيقته ولا روحه . وما اكثر مانعلمه او نعتقده . وما اقل ما نستجيب له او نفني فيه ! . . .

يامسلمة اليوم . ضموا الاسلام من الداخل لا من الخارج . اجعلوه فى القلوب والعقول والعزائم . لا فى الصور والمظاهر . ويومئذ تفرحون بنصر الله العلى الكبير »

الشرباصي

بين الصورة والحقيقة

إن كل شيء له صورة وحقيقة ، وبينهما فرق كبير رغم الشبه العظيم ، تميزون بينهما بسهولة فى حياتكم وتعاملون الحقيقة بما لا تعاملون به الصورة . وأضرب لذلك مثلين . هذه مثل للثمار مصنوعة من الخزف تترائى للناظر كأنها تفاح ورمان وبرتقال وعنب وموز فى لونها وشكلها ، ولكن أين الصورة من الحقيقة وأين طعم هذه الثمار ورائحتها ؟ إنها ليست إلا للزينة أو المثال

إنكم ترون فى المتحف كل نوع من السباع والأنعام والطيور الجميله والعصافير الصغيرة . ففيها الأسد والذئاب والأفيال والدباب ، وفيها كل طائر جارح وكل سبع مخيف ، ولكنها جثث هامدة لاحراك بها وأجساد ميتة محشوة بالليف والقطن ليس فيها رمق من حياة وقوة تهجم بها وتصول حتى لاتحس منها من أحد ولا تسمع لها ركزا .

إن الصورة لا تستطيع أن تسد مكان الحقيقة وتنوب عنها ، ولا يمكنها أن تمثل دور الحقيقة فى الحياة وتأتى بما تأتى به من عمل ونشاط ، ولا يمكن أن تقاوم الحقيقة وتكافحها فاذا وقع صراع بينهما انهارت الصورة ، ولا يمكنها أن تحتمل عبء الحقيقة . فاذا وكل أحد إلى الصورة وظيفة الحقيقة أو عول عليها فى مهمة خانته الصورة وخذلته أحوج مايكون إليها .

والصورة ولو كانت مهيبة هائلة ، تغلب عليها الحقيقة ولو كانت ضعيفة متواضعة ، لأن الحقيقة الحقيرة أقدر وأقوى من الصورة العظيمة المهيبة . وان الولد يقدر أن يسقط الاسد الميت المحشو بالليف والقطن بيده الضعيفة الناحلة لأن الولد يحمل حقيقة ولو حقيقة صغيرة ، والأسد ليس إلا صورة ولو كانت صـــورة مهيبة .

إن هذا العالم الذى نعيش فيـــه ؟ عالم الحقيقة والأمر الواقع . وقد خلق الله كل شيء على حقيقة ، فللمال حقيقة وحبه فطرى طبعى ، ولأجل ذلك وردت عنه الأحكام ووضع الله فيه التأثير والجذب ، وللاولاد حقيقة والحنان

إليهم وحبهم فطرى ولأجل ذلك وردت الأحكام فى الشرع عن تربيتهم وتعليمهم ، وكذلك للحاجات الطبعية والميول الفطرية حقيقة لاتجحد . ولا تغلب تلك الحقائق إلا حقيقة أقوى ورغبة أعظم وأشد .

إننا نحتاج إلى حقيقة الاسلام والايمان للظفر على الحقائق المبثوثة فى العالم . أما صورة الاسلام فهى عاجزة عن أن تقهر هذه الحقائق وتنتصر عليها وإن كانت حقائق ممزوجة بالباطل لأن الصورة المجردة لاتنتصر على أى حقيقة .

ولذلك نرى اليوم بأعيننا أن صورة الاسلام أصبحت لا تغلب على الحقائق المادية الحقيرة ، لأن الصورة ولوكان ظاهرها مقدسا رائعا ليس لها سلطان وتأثير وان صورة اسلامنا وصورة كلمتنا وصلاتنا اليوم لاتقدر ان تتغلب على عاداتنا الحقيرة وتقهر شهواتنا وتثبتنا على جادة الحق عند البلاء والامتحان .

إن الكلمة التى كانت من قبل ذات سلطان عجيب على القلوب والارواح وكانت تهون على الناس ترك المألوفات وقهر الشهوات والشهادة فى سبيل الله وبذل الأرواح والأنفس لله واحتمال المكاره وتجرع المرائر فى سبيل الدين هاهى الآن عاجزة عن ان تحمل الناس على ترك فرشهم بعد ان استغرقوا فى النوم طول الليل ويقوموا لصلاة الفجر ! نعم ، الكلمة التى كانت تغلب على شهوة الخمر فتحول بين الانسان وبين الكأس وهى على راحته فيمتنع من شربها لأن الدين يمنع من ذلك ، ولأن الكلمة تأبى عليه ان يقرب الحرام ، هاهى الآن قد اصبحت لا تملك امرا ولا نهيا :

سرح طرفك فى تاريخ الاسلام وتجول فى فصوله وأوراقه يظهر لك ان كلمة الاسلام التى كان الصحابة وكان المسلمون فى القرون الأولى يتلفظون بها كانت ذات حقيقة ثابتة وكانت كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها فى السماء توتى اكلها كل حين باذن ربها . وكلمتنا نحن الفاظ مجردة ونطق فارغ ولأجل ذلك ترى عدم تأثيرها فى حياة الامة ، ثم إننا مع ذلك نحاول ان نطبق حياة اصحاب النبى ﷺ على حياتنا ونرجو ان توتى هذه الكلمة اكلها كل حين وتحدث ماحدثت فى الماضى حتى إذا لم يكن ذلك بطبيعة الحال تسائلنا وقلنا : ألسنا مسلمين ؟ ألسنا نصلى ونصوم ؟ ألا نتلفظ بكلمة :الاسلام ونرددها صباحا ومساء ؟ فلماذا هذا

الفرق الهائل بين عهدنا وعهد الخلفاء الراشدين ، ولماذا هذا البون الشاسع بين حظنا وحظهم ؟ واين ثمرات شجرة الايمان ، واين نتائج الصلاة والصيام ، واين ماوعد الله من النصر المبين والاستخلاف والتمكين ؟ !

لاتخدعنا انفسنا ولنعلم انهم كانوا اصحاب جد وحقيقة الدين . لقد كانت كلمتهم حقيقة ، وكانت صلاتهم حقيقة ، ونحن متجردون عن هذه الحقائق فرجاء أن تثمر الصورة ماأثمرت الحقيقة وتغنى غناءها . إنما هو وهم خيال وضرب من المحال .

أما قرأتم فى التاريخ أن خبيبا رضى الله عنه رفعوه على الخشبه وتناولوه بالرماح والأسنة حتى تمزق جسمه وهو قائم لايشكو ولايئن فيقال له . أتحب ان يكون محمد ﷺ مكانك ؟ فيضطرب ويقول . والله لا أحب أن يفدينى بشوكة يشاكها فى قدمه !

يا أبناء الاسلام ! ان الذى ثبته فى هذا المكان وألهمه أن ينطق بمثل هذه الكلمة العريقة فى حب الرسول هل هى صورة الاسلام ؟ لا بل هى الحقيقة التى مثلت بين عينيه الجنة والرماح تنوشه وتعبث بجسمه وناجته وقالت : صبرا ، ياخبيب ؟ فما هى إلا لمحات وثوان ، وهاهى الجنه تنتظرك ورحمة الله ترتقبك فاذا احتملت الآم هذا الجسد الفانى والحياة الزائلة العابرة نلت السعادة الدائمة والحياة الباقية .

هذه هى اللذة الروحية وحقيقة الحب والايمان التى أبت على خبيب أن يطلق ويؤذى رسول الله ﷺ بشوكة فى قدمه . فهل تستطيع الصورة أن تحمل صاحبها على هذا الاخلاص والتفانى والثبات على العقيدة والصبر على الموت ؟ كلا ؟ إن الصورة لا تستطيع أن تقاوم الشدائد والآلام بل حتى الخيالات والأوهام . وقد بدا لنا ذلك فى الاضطرابات الطائفية الماضية فى الهند فان أناسا من المسلمين قد غيروا صورة الاسلام خوفا مما مر بخاطرهم من الفزع وخشية الموت وما دار فى رؤسهم من معارك خيالية حامية واختاروا شعار الكفر وذلك لأن هؤلاء الناس قد كانوا متحلين بالصورة فارغين عن الحقيقة .

هاجر سيدنا صهيب رضى الله عنه فلما كان فى الطريق اعترضته جماعة من مشركى مكة وقالوا له : اتيتنا صعلوكا حقيرا فكثر مالك عندنا وبلغت الذى بلغت ثم تريد

لك أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك ، وهناك قامت المعركة بين حقيقة الاسلام وحقيقة المال ودارت بينهما رحى الحرب فانتصرت حقيقة الاسلام على ضدها وقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم ، قال : فانى قد جعلت لكم مالى (١) ، وهكذا انطلق صهيب بدينه متجردا من ماله فرحا مسرورا كأنه لم يفقد شيئا ولم يخسر شيئا .

وخرج سيدنا أبو سلمة بزوجه وابنه يريد المدينة فلما رأته رجال من بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد ، ونزعوا خطام البعير من يده وأخذوها منه وأخذ بنو عبد الأسد سلمة ولده الصغير ، هناك اصطدمت حقيقة الاسلام بحب الزوج والولد فما لبثت ان انتصرت عليه « وغادر أبو سلمه زوجه وولده تحت رعاية الله وهاجر وحيدا . هل الصورة تستطيع ذلك ؟ ؟ وهل يقدر اصحابها على ترك الزوجات والأولاد فى سبيل العقيدة والدين ؟ كلا ، بل سمعنا ان اناسا قد ارتدوا عن دينهم للمال والأزواج والأولاد وغير ذلك من متع الدنيا وزخارفها .

كان ابو طلحة مقبلا على صلاته فاذا طائر يدخل فى بستانه ثم لا تجد الطريق للخروج ويميل إليه قلب ابى طلحة ، فلما انصرف من صلاته تصدق بهذا البستان ، لأنه لا يحب ان يشغله شىء عن حقيقة صلاته وينازع قلبه !

إن للبستان حقيقة وثمره وأكله حقيقة ولا تغلب هذه الحقائق الا حقيقة الاسلام وان صلاتنا اليوم مجردة عن الحقيقة ولذلك لا تقدر ان تقاوم ادنى الحقائق المادية

لقد كان فى حرب يرموك بضعة آلاف من المسلمين واما الروم فقد كان عددهم يبلغ الى خمس مائة ألف او يزيدون ، فاذا نصرانى كان يقاتل تحت لواء المسلمين يقول : ما أكثر الروم واقل المسلمين ، فيقول خالد رضى الله عنه : والله لوددت ان الأشقر برأمن توجعه وانهم اضعفوا فى العدد (٢)

بم كان خالد رضى الله عنه مطمئنا . ولم لم يشغل خاطره

---

١ — سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٢١

٢ — الأشقر فرس خالد وكان قد حفا واشتكى فى مجيئه من العراق (البداية والنهاية ج ٥ ص ٩)

هذا العدد الهائل ولم لم تكبر فى عينه جنود الروم الكثيفة ؟ ذلك لأنه كان مؤمنا بالله واثقا بنصره ، ولأنه كان يعلم انه على الحقيقة ، وان مقابله صورة فحسب ، وان الروم صورة فارغة عن الحقيقة ، وكان يعتقد ان الصورة مهما كثرت لا تقدر ان تقاوم حقية الاسلام .

لا شك اننا نتلفظ بكلمة الشهادة والتوحيد ومنا من يعرف مايقول ولكن الصورة شيء والحقيقة شيء آخر . ان اصحاب النبي ﷺ والمسلمين الصادقين كانوا على حقيقة هذه الشهادة فاذا قالوا : لا إله إلا الله اعتقدوا أنه لا إله غيره ولا رب غيره ولارازق غيره ولا نافع ولا ضار الا هو له الملك والحكم والخلق والأمر وبيده ملكوت كل شيء يجير ولا يجار عليه وأخلصوا له الحب والخوف والسوال والرجاء والعبادة والدعاء واصبحوا عبادا حنفاء شجعان اقوياء لايهابون العدو ولايخافون الموت ولا يبالون بلومة لائم .

نرجع إلى أنفسنا ونفكر هل هذه الحقيقة متغلغلة فى أحشائنا ومتسربة فى عروقنا وشرائيننا وهل غرس حياتنا يسقى بهذا الماء معذرة وعفواً أيها القراء ! إنا نخاف أن لايكون الامر كذلك وأن نصيب الصورة فى حياتنا أكثر من أن نصيب الحقيقة وذلك موضع الضعف فى حياتنا وسر شقائنا ومصائبنا .

إننا جميعا نؤمن أن الآخرة حق والجنة حق والنار حق والبعث بعد الموت حق ، ولكن هل إننا حاملون لحقيقة الايمان كأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم باحسان ، وقد سمعنا أن أحدهم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قوموا إلى جنة عرضها السموات والارض . فرمى بما معه من التمر وقال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه انها لحياة طويلة وقاتلهم حتى قتل ، لأن الجنة كانت عنده حقيقة لايشك فيها . فمن أيقن بقول كأنس بن النضر إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد .

أتى رجل من المسلمين يوم اليرموك وقال للامير : إنى قد تهيأت لأمرى

فهل لك من حاجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال . نعم اتقرئه عنى السلام وتقول : يارسول الله إنا قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا

أفيقول هذا إلا من يوقن أنه مقتول فى سبيل الله وملاق رسول الله ومجتمع به فى نعمة الله وأنه مكلمه ومحدثه . فاذا حصل لرجل مثل هذا اليقين فما الذى يمنعه من استقبال الموت وما الذى يحول بينه وبين الشهادة ؟ إن أكبر إنقلاب وقع فى تاريخ هذه الأمة هو أن الصورة احتلت مكان الحقيقة واستولت على حياة الأمة وذلك من عهد بعيد فى التاريخ والذين كانوا يرون الصورة من بعيد يعتقدون انها الحقيقة ولذلك يذعرون ويشفقون من قربها ، فكانت هذه الصورة الاسلامية كجدار ينصبه الفلاح فى حقله كيلا يحل فيه الطير والوحش، ولا تزال الطيور والوحش تظن انه إنسان أو حارس فلاتقربه حتى يتشجع غراب ذكى أو حيوان جرىء فيجد انه ليس بشىء ، هنا لك تدخل الطيور والوحش فى هذا الحقل وتعيث فيه وتتلف زرعه ، وقد وقع للمسلمين نفس الحادث ، لقد حرستهم صورة الاسلام مدة طويله جدا ، فلم تجترىء عليهم امم العالم ولم يدر بخلد أحد أن يمتحن هذا الشبح المخيف ويتحققة ، ولكن حتى متى ؟ لما أغار التتار على بغداد افتضح المسلمون وظهر إفلاسهم فى الروح والقوة المعنوية من ذلك الحين أصبحت الصورة عاجزة عن أن تحافظ عليهم وتذود عنهم المكروه وتدفع عنهم غارات الامم ، فان الصورة لاتقوم إلا على الجهل والغرور فاذا انكشف الغطاء وزاح الستار بين الصبح لذى عينين .

وإن مانرى ونقرأ فى تاريخ الاسلام من أخبار انكسار المسلمين وهزيمتهم فى ميادين القتال إن كل ذلك أخبار انخذال الصورة وفضيحتها لاغير وقد فضحتنا الصورة فى كل معركه وحرب ومقاومة واصطدام . . ولكن الذنب علينا لأننا حملنا عبء الحقيقة على ظهر الصورة فلم تستطع حمله ولم تمسكه وعقدنا الآمال الكبار بالصورة الضعيفه فخيبت رجاءنا وكذبت أمانينا وخذلتنا فى الميدان .

تكرر الصراع بين صورة الاسلام وشعوب العالم وجنودها ، وفى كل مرة

تنخذل وتنهزم الصورة ويعتقد الناس انه هزيمة الاسلام وخذلانه وبذلك هان الاسلام فى عيون الناس وزالت مهابته عن القلوب ، ولا يدرى الناس أن حقيقه الاسلام لم تتقدم إلى ساحة الحرب منذ زمن طويل ولم تنازل امم العالم، وان الذى يبرز فى الميدان هو صورة الاسلام لاحقيقته ، وخليق بالصورة ان تنهزم وتضمحل أمام الواقع والأمر الجد .

هاجمت بعض الدول الاوربيه فى الحرب الاولى تركيا الاسلامية تركيا التى ارعبت أوروبا كلها وهزمت دولها مرة بعد مرة ، وكانت تركيا فى هذه المرة حاملة لصورة شاحبة للاسلام وقد فقدت شيئا كثيرا من حقيقة الايمان ففشلت فى المقاومة وفقدت كثيرا من ممتلكاتها .

واجتمع سبع دول عربية لمحاربة الصهيونية فى فلسطين ، وكانت هذه الدول العربية عليلة الروح وقد اطفأت المادية الاوربية جمرة القلوب وشعلة الجهاد فى سبيل الله وحببت إليها الحياة واللذات ثم انها تتخلف تخلفا كبيرا فى المعدات الحربية والتنظيمات العصرية، فكانت الحرب بين العرب المسلمين واليهود الصهيونيين صراعا بين صورة الاسلام وحقيقة القوة والتنظيم والحماسة فكانت نتيجة هذه الحرب نتيجة كل صراع بين الصورة والقوة .

إن الصورة لها منزلة ومكانة عند الله تعالى ، لأنه قد عاشت فيها الحقيقة قرونا طويلة ، ويحبها الله لأنها صورة أوليائه ومحبيه، وكذلك نعرف لها الفضل، لأن الانتقال من صورة الاسلام إلى حقيقة الايمان أسهل بكثير من الانتقال من حقيقة الكفر أو صورته إلى حقيقة الايمان والاسلام . فلنحافظ على هذه الصورة ولنتمسك بها ، ولكن لاينبغى أن نقنع بها ونستهين بالحقيقة والروح .

يا أبناء الاسلام ! إن وعد الله من النصرة والفتح فى الدنيا والنجاة والغفران فى الآخرة كل ذلك محصور فى حقيقة الاسلام وذلك قوله تعالى : « ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين » لاشك فإن الخطاب فى هذه الآية للمسلمين ومع ذلك اشترط الايمان للعزة فى [illegible]ض والعلو والشوكة ، وقال فى

موضع آخر : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد » وقال أيضا : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون » ورغم أن جميع تلك الوعود كانت على أساس الايمان والاعمال الصالحة اشترط ان يكون فى المسلمين حقيقة الايمان والتوحيد .

إن أكبر مهمة دينية فى هذا العصر وأعظم خدمة وجلها للامة الاسلامية هى دعوة السواد الأعظم للامة واغلبيتها الساحقة إلى الانتقال من صورة الاسلام إلى حقيقة الاسلام فلمثل هذا فليعمل العاملون ويبذلوا جهودهم ومساعيهم فى بث روح الاسلام فى جسم العالم الاسلامى ولا يدخروا فى ذلك وسعا فبذلك يتحول شأن هذه الامة وفى نتيجته شأن العالم بأسره فان شأن العالم تبع لشأن هذه الأمة وشأن الأمة تبع لحقيقه الاسلام ، فاذا زالت حقيقة الاسلام من الأمة المسلمة فمن يدعو العالم إلى حقيقة الاسلام ومن ينفخ فيه الروح؟ قال سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام لأصحابه « أنتم ملح الأرض فاذا زالت ملوحة الملح فماذا يملح الطعام ؟ » .

قد أصبحت حياتنا اليوم جسداً بلا روح لأن السواد الأعظم للامة مجرد عن الروح فارغ عن الحقيقه فكيف يعود الروح والحقيقة فى الحياة الانسانية مرة أخرى ؟!

إن فى هذا العالم مما لاتزال فارغة عن الحقيقة والروح من أقدم العصور إلى يومنا هذا ولم يبق فيها إلا عدة معتقدات مرسومة وبضع صور حقيرة مجرد عن الروح وانتهت حياتها الدينيه والروحيه الحقيقية من جديد ، حتى أن إنشاء أمة بأسرها أيسر من إصلاح هذه الأمم وتجديد حياتها الدينية والخلقيه والذين نهضو لاصلاحها وبذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل قد أخفقوا ولم يفلحوا فى مهمتهم رغم الوسائل العظيمة الكثيرة التى حدثت فى هذا العهد من الطبع والنشر والتأليف والاذاعة والتعليم والتربية وطرق الدعاية والتأثير وذلك لأن

عروة دينها قد انفصمت انفصاماً تاما ، وانقطعت علاقتها عن منبع الحياة الدينية والخلقية والروحية .

أما الأمة الاسلامية فلا تزال — على علاتها وضعفها — مستمسكة استمساكا ما بعروة الدين وهى الايمان بالله والرسول واليقين بالدار الاخرة والحساب لم تتركها ثبته ولم تنقطع عنها انقطاع الأمم الأخرى بل إن إيمان كثير من عامة المسلمين ودهمائهم يزرى بايمان كثير من خواص الأمم الأخرى وعليتهم ويفوقه متانة ورسوخا وحماسة ، ثم ان كتابها لايزال فى يدها لم يتناوله التحريف ولم يعبث به العابثون كما فعلوا بالصحف الأولى ولا تزال سيرة الرسول واسوته الحسنة بمتناول يدها ، فالدعوة الى الدين ميسورة ، والتجديد ممكن ، والقلوب متهيئة ، وجمرة الايمان سريعة الاتقاد والشقة بين الصورة والحقيقة قصيرة ، والقنطرة بينهما الدعوة الى تجديد الايمان والرجوع إلى الدين والتشبع بروحه والتحلى بحقيقته .

لست قانطا من ظهور حقيقة الاسلام فى هذا العصر ، ولا نصدق أبدا بأن الزمان قد تغير والمسلمين قد ابتعدوا جداً عن روح الاسلام فلا أمل فى حقيقة الاسلام وغلبتها من جديد ، أنظروا الى ورائكم ترون جزر حقيقة الاسلام قائمة منتشرة فى بحر التاريخ ، وان الحقيقة لم تزل تطفو كلما رسبت وتظهر كلما اختفت ، وكلما ظهرت حقيقة الاسلام وتجلت فى ناحية من نواحى العالم الاسلامى أو عصر من عصور التاريخ الاسلامى غلبت وانتصرت وكذبت تجارب الناس وقياسهم وتقديرهم وكادت الأحوال والأمور ان تعود لى ما كانت عليه فى الماضى السعيد وهبت على قلوب الناس نفحات القرن الأول ، وإن حقيقة الاسلام فى هذا العصر إذا ظهرت وتمثلت فى جماعة تستطيع ان تذلل كل عقبة وتهزم كل قوة وتاتى بعجائب وآيات من الايمان والشجاعة والايثار يعجز الناس عن تعليلها كما عجزوا من قبل عن تعليل حوادث الفتح الاسلامى واخبار القرن الأول .

(٥)

إلى شاطىء النجاة

« قاتل الله العصبية العمياء حيث كانت ، ولعن الله التفاخر الكاذب أينما وقع ، هذه يونان مثلا قد غرها شعرها وفنها وفلسفتها فاستكبرت عن قبولها الهدى يأتيها من الشرق والجنوب على ايدى الرسل والأنبياء ، فما اغنى الشعر عن يونان شيئا ولا الفن ولا الفلسفة ، ولا حققوا بذلك سعادة ، بل غاصوا في بحار الشهوات فكانوا من المغرقين ، ومثل اليونان الرومان ، أنفوا ان يقبلوا الهدى من الفقراء فكانوا من الأشقياء ، وكذلك شأن كل متكبر جبار يتعالى عن قبول المصباح الهادى لأنه فى يد فقير او غريب !

ولقد اختار الله رجال الصحراء الأنقياء لينقذوا العالم من الهاوية ، فمن استجاب لهم نجا ، ومن تمرد عليهم هلك او ذل : ولا يزال الزورق معدا لمن اراد النجاة »

الشرباصى

الى شاطىء النجاة

من القصص الهنديه ان اميرا من اهل البيوتات والشرف ورد نهراً ليغتسل فأشرف على الهلاك فبصر به رجل من اراذل الناس فأسرع اليه واخذه الى شاطىء النجاة فلما افاق الامير وتماسك سأل عن اسم منجده وحاله، فاذا هو رجل وضيع النسب فاستشاط غضبا وعد صنعته جريمة حيث دنس جسده الطاهر بيده وامر به فعذب ذلك المسكين الكريم واوسع صفعا وضربا وصار نكالا للناس جميعا.

لم تنته القصة بعد بل إتفق الأمير مرة ثانية ان دخل النهر ووقع له نفس الحادث وحاول النجاة فلم يفلح اما المذنب الاول فكان منه على كثب وكان ميسورا له انجاد الامير ولكنه لم يجترأ ان يكرر جريمته الأولى بعد ما عوقب شديدا حتى عبثت الأمواج بذلك الأمير السامى الكريم ولم تحتفل بكرامته ونسبه وذهب الرجل ضحية كبريائه وسفاهته.

هذه أسطورة لعلها سبقت الى مسامعك فاستغربت وقوع مثلها فى العالم وصدورها من رجل رزق شيئاً من العقل ولكن الفكر الانسانى له أطوار وعجائب وقد روى لنا التاريخ شيئا كثيرا من هذه المضحكات المبكيات، فطالما اغرقت العصبية الجنسية والخيلاء النسبية الافا من البيوتات ومئات من الجماعات وفقدت رشدها فى سبيل هذه العصبية والكبر حتى آثرت الهلاك على النجاة وفضلت الضلالة على الهدى واختارت الغى على الرشد وأبت أن تتبع رجلا لا ذنب له إلا أنه ولد فى جنس آخر أو وطن آخر أو فى بيت فقير أو شعب حقير واستنكفت من أن تتخذه قائداً ومرشدا.

وتقرأ لهذه القصة الطريفة نظائر وأمثله كثيرة فى تاريخ الأديان والأخلاق، والعالم الحديث وإن كان ذا عقلية واسعة وفكر عالمى لا يزال يتحفنا بحكايات ونوادر لا تقل من أسطورة الأمير طرافة وغرابة، فقصة الأمير المتكبر الغريق التى تراها من القصص الخرافية المختلفة إنما هى حكاية صادقة عن بعض عجائب الانسان وتمثيل صحيح لناحية من نواحى الطبيعة البشرية وكان الأمير بطل هذه القصة، ولكنها ليست قصه الامير وحده بل هى قصة تاريخية لآلاف من الناس العقلاء ومئات من الشعوب الراقية ليس فيها شىء من الكذب والوضع.

هل أتاك حديث يونان ؟ أرض الشعراء والأدباء وأرض الفلاسفة والحكماء ومن يجهل أفلاطون وأرسطوطاليس وبقراط وسقراط ؟ أرض قد يظن الرجل أنها لم تنجب غير الشعراء والفلاسفة والأطباء ولم يكن فيها إلا شاعر أو أديب ، أمـة موهوبة وأرض مخصبة كانت فيها الحكمة والفلسفة وكانت فيها الأقليدس والهندسة ، وكان فيها الشعر والأدب والتصوير والنحت وسائر الفنون الجميلة أرض كانت مادة لا تنقطع لكل ما أبدعه الذوق الانسانى وأوجدته القرائح البشرية ، فكان اليونان اساتذة العالم ولا تزال البلاد والأمم تزهو بتقليدهم حتى اليوم .

كان هذا وذاك ، ولكن هناك امور لا تحيط بها العقول البشرية ولا يتناولها العلم الانسانى ولا ينفع فيه الذكاء وحدة الذهن وهى ماسر هذه الدنيا وكيف أوجدت ومن أبدعها وما ذا أراد بخلقها ثم ما مصيرها وغايتها وما هى الشريعة المرضية للحياة لدى خالقها ، وهل من حياة بعد هذه الحياة وإن كان لابد من الحياة الآخرة فما هى واجبات الانسان نحوها وكيف يتزود لها ويعد لها عدتها وما هو الطيب والخبيث والحلال والحرام ؟ هذه أسئلة يعجز الانسان عن حلها الصحيح بالخرص والظن فلا القياس يجديه نفعا ولا الظن يغنى عن الحق شيئا .

حاول اليونان كعادتهم ان يمروا بهذه الأسئلة مرور الشعراء والادباء وكان مجال الشعر فى هذا الوادى ضيقا غير فسيح وما كان الشاعر يوما من الايام فارس هذا الميدان وصاحب الكلمة فى هذا الموضوع ، حتى عثر اليونان فى كل خطوة خطوها ، نسبوا إلى الله عز وجل آمورا يستنكف منها الحر الكريم ، واختلقوا طومارا وهميا فى نسب العقول والافلاك اختلافا مضحكا وربطوا به العالم وأفرغوا أساطير الاصنام الخرافية (MYTHO LOGY) فى قالب الفلسفة وكسوا قصص الاصنام والالآهات المرصوعة لباسا دينيا علميا حتى قتلت هذه الخرافات من اليونان روحهم الدينية وبقيت اليونان ميتة بين الأموات جوفاء لا روح فيها ولا حياة ، أقفرت القلوب من خشية الله والافئدة من حبه وأثرت القصص الغرامية الموضوعة للآلهة والالاهات وأخبـار معاشقتها ومغازلتها وعلاقاتها السرية فى الآداب اليونانية والمجتمع اليونانى تأثيراً سيئا فأثارت الشهوات الجنسية وأفسدت الحياة المنزلية ، حتى لم يبق هناك ميزانا للخير والشر

وقامت الفلسفة تحامى عن كل إثم وتحتج لكل شر ونهض أقطاب الفلسفة والحكمة يبررون البغاء ويدافعون عن المومسات وحرفتهن إلى أن أصيبت هذه الأمة الذكية بانحطاط خلقى هائل وفوضى فى الاجتماع المعاشرة وإنحلال خلقى واجتماعى لابقاء لأمة عليه ، وسال هذا السيل الجارف لكل علم وأدب وذهب بكل خيرات اليونان وحاصلاتها الممتازة بين البلدان .

وكانت وراء الشرق الجنوبى من اليونان بلاد وأمم كانت دون اليونان عقلا وعلما فما كان فيها حكماء مثل سقراط وافلاطون ولا شعراء مثل هوميرس وعسقليوس ولا رجال الهندسة والرياضة مثل اقليدس وفيثاغورث ولم تكن لها يد طولى فى الفنون الجميلة إلا ان الله سبحانه اختار فيها رجالا بالرسالة والنبوة واوحى اليهم دينه وافاض عليهم علوم ذاته وصفاته ومنحهم فى سر هذه الحياة ومصير هذا العالم علما محكما لا يتطرق اليه الشك ووهبهم دعائم دينية يقوم عليها بناء الاخلاق والاجتماع والمدنية الصالحة فى كل عصر .

لقد كان اليونان يملكون ثروة عظيمة من الكلمات الحكيمة والمصطلحات العلمية والبحوث الفلسفية ولكن الأنبياء كانوا يعرفون حقائق الأشياء وجوهرها ولبها وكان فى يد اليونان الغاز معقدة عن الكون والاجتماع والأخلاق كلما حاولوا حلها ازدادت تعقدا وإلتواء ،اما اولئك فكان فى ايديهم المباركة طرف كل حبل ومفتاح كل قفل .

كان فلاسفة اليونان يتلاعبون بأصداف من بحر الحقيقة المائج ويعبثون بالخزف والحصاة اما هؤلاء فقد خاضوا ذلك البحر العظيم ونزلوا فى اعماقه فأخرجوا درره النفيسة الغالية وكان الاغريق يعلمون كل شى ويجهلون انفسهم وقد دونوا تاريخ العالم بأسره فما من بقعة من بقاع الارض إلا احاط بها اليونان علما وخبرا ولكنهم لم يطلعوا على مدبر العالم الوحيد وقد افلسوا فى الروح والأخلاق إفلاسا شائنا ، عجزت علومهم وفلسفة الأخلاق ان تنفخ فى رجل واحد روح الطهارة وخشية الله واشرب الناس فى قلوبهم حب الشهوات وتهافتوا على اللذات ورتعوا فى المحرمات واطلقوا عنانهم فى الفحشاء والمنكر .

اما الانبياء فكل من اتصل بهم او هبت عليه نفحة من نفحاتهم خرج من أسر الهوى وتحرر من رق الشهوات وخمدت فيه جذوة الاثم وتولدت فيه الدواعي القوية . للتقوى والطهارة وبلغ من معرفة الله ومحبته ومن اليقين درجة لم يبلغها حكماء اليونان وفلاسفتهم .

أما فلاسفة اليونان فقد عجزوا من أن يربوا تلاميذهم النجباء على الزهد والتقوى ومقاومة النفس والهوى وذلك بعدما علموهم قسطا وافراً من العلوم والآداب ، وخرجوهم فى فنون الفلسفة والاخلاق أما الرسل (صلوات الله عليهم وسلامه) فكانوا يرفعون الأنفس الوضيعة من حضيض الحيوانية إلى أوج الانسانية بغير واسطة الكتب وأدوات التعليم ثم يعدونهم لمغالبة الشيطان والنفس الأمارة بالسوء فكانوا ازهد فى الدنيا واحرص على البر واخوف لله وأملك من كبار الحكماء والفلاسفة ، اعمق الناس علما وأبرهم قلوبا وأقلهم تكلفا .

بلغت دعوة هؤلاء الرسل الى اليونان وقرعت الآذان فما كان منهم إلا أن أنفضوا رؤسهم فى سخرية واستهزاء وأجابوا فى احتقار وازدراء أبعد هذه العلوم الواسعة والمكتبة الزاخرة والاكتشافات المدهشة فى كل علم وفن نقتدى بأميين لا يحسنون الكتابة والقراءة ولا يعرفون مبادىء العلوم ؟ هذا والعالم كله متطفل على مائدة علومنا وفلسفتنا ويطرب لادبنا وشعرنا ويتفاخر بتقليدنا وأى علم نجهله حتى نحتاج إلى أن نراجع فيه غيرنا ، فكان عاقبة هذه الكبرياء أنهم استغنوا عن هداية الرسل وضيعوا فرصة الانتفاع بعلومهم التى لا توجد عند غيرهم ولا تصلح الحياة الا بها واصبحت علومهم التى كانت مجردة عن هداية الرسل ومعرفة الله تعالى منبع الفساد والعلة فى جسم حياتهم تنفث السم وتفسد الدم وتعميهم عن الحقائق وتشغلهم بالفضول حتى اصبحوا فريسة الادواء الخلقية والشرور الاجتماعية والتنافر الجنسى والاضطراب المنزلى وأصبحوا حديثا فى التاريخ وقصة من القصص الماضيه وكانوا كما وصف الله تعالى فى القرآن « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن »

وقد تمثلت هذه الرواية فى رومة بعينها رومة التى ورثت عن اليونان نتاج علومها وسياستها إلى أن فاقت صاحبتها فى النظام السياسى والتشريع وفن الحرب وقد قبضت رومة فى براثنها الحديدية على ناصية القارات الثلاث اوربا وآسيا وافريقيا واستولت عليها كأسرة واحدة وأجادت فى إدارة المملكة وكثرة الفتوح والمستعمرات ولباقة التشريع وحماية الفنون الجميلة كالنقش والنحت وفن البناء والعمارة فقد فاقت رومة فى كل ذلك على أخواتها وبرزت ولكنها بقيت جاهلة اسر الحياة ولم تتمكن من أن تستقى من معين الحقيقة الصافى وكانت تدين بعبادة الاصنام والأجرام وقد فقدت المعايير الصحيحة وخسرت قيم الاخلاق وموازينها الصحيحة وظلت بعيدة عن الهداية الكاملة المعصومة . فكان عاقبة ذلك أنها أصيبت بأمراض خلقية روحانية عسيرة ، كتبذير الاموال والغلو فى الترف والبذخ والجشع المادى والتهافت على الاموال واللذات وازدياد الضرائب والاتاوات فعاد كل ذلك وبالا على رومة وعذابا أليما وفسدت الأذواق ومسخت الأذهان حتى بلغ أهل رومة فى القسوة وحب التفرج والاستهانة بالنفس البشرية مبلغ السباع والمجانين حتى كثر التفرج على المبارزة بالسيف (GLADIATOR) بين القرنين وكان يزدحم أهل رومة للتفرج عليه وكان أحب المناظر إحتقارا القتلى وأنين الجرحى وكانت ولائم الأمراء وحفلات الأغنياء تضاء باحراق العبيد احياء (١) هذا ولم تر فى رومة حكيما ينتقد هذه العادات الهمجية وعالما يذم هــذه القسوة والسبعية .

وفى ذلك العصر عصر الانحطاط والتدهور فى الأخلاق والمعاشرة بعث فى الأمم الشرقية غير واحد من الرسل (صلواة الله عليهم وسلامه) فوصلت أخبارهم ودعوتهم الى رومة ولكن أنفت رومة . رومة - وهى سيدة العالم - من ان تصغى الى رجال ولدوا فى أمم منحطة وبلاد غير راقية واستهان أهلها بدعوتهم وكيف تقبل رومة الى رجال لاسيادة لهم ولا سلطان وهى صاحبة الأمر والنهى فى

---

(1) History Of The European Morals By Deccy

بلادهم ، فكانها قالت بلسان الحال « انؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون » ولم تزل حجة المنكرين من الاغنياء والمترفين من قديم الزمان « لو كان خيرا ما سبقونا اليه » ماقدرت رومة نعمة النبوة حق قدرها فأغرقتها العصبية القومية وكبرياء الملوكية وأخذتها موجة طاغية من الفساد والانحلال والفوضى ومحيت من الوجود « ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله ، والله غنى حميد » .

كانت رومة وإيران والصين والهند فى القرن السادس المسيحى من البلاد المتمدنة فى العالم ولكن كل غصن من أغصان الديانات أصبح ذاوياً لايثمر ولا يورق وكل مشعل اشعلته النبوة فى زمانها فقد نفذ زيته وانقطعت مادته ، أفلست الأمم والاديان فى اليقين ومعرفة الله الصحيحة وكان التخمين والخرص بضاعة المتدينين ومطية العلم والدين وكانت هوى الأنفس روح السياسة والاجتماع وكان الدين والملوكية كفرسى رهان ورضيعى لبان فى الخدعة والمكر تخلت الصوامع والبيع والكنائس من القيادة الرشيدة وتنازلت منذ أمد بعيد من إرشاد الناس ولنظرة عجلى فى الهندوكية والبوذية والمجوسية والمسيحية يدل على ان هذه الديانات قد فقدت نضارتها وانطفأت مصابيحها فلا تكاد تضىء ولو مستها نار فلا توقظ الروح ولا تنعش الضمير ولا تبعث خشية الله والشعور بالواجب، تحمل الأحكام الواضحة والأوامر البينة التى فصلت من لدن حكيم خبير .

أنهكت الدولة الفارسية والرومية الفلاحين والصناع والتجار بالضرائب المتنوعة والاتاوات المبتدعة المستحدثة التى اصبحت لهم الشغل الشاغل والهم الوحيد فى الحياة حتى دهشوا عن إلتماس حقيقة سامية أو السعى للاخرة وكان مثلهم كمثل الثيران نهارها تعب وليلها نوم وحياتها شقاء للغير وحظها علف وماء وذلك ايضا لتقوى على الخدمة وتقضى حاجة أصحابها .

أما الهند فقد بلغ فيها التفاوت بين الطبقات والانساب والحرف مبلغ التفاوت بين البشر والحمير والبقر ، بل نزل المنبوذون فيها منزل الكلاب والخنازير ولطخت الشهوة الجنسيه والروايات الغرامية المعابد والذخائر الأدبية والدينية وتغلغلت عبادة القوة والمال فى احشاء الأمة وبقى الدين رسماً

باليـــا واسما لبعض الطقوس الدينية والتقاليد الاجتماعية أو مجموعا لمصطلحات الفلسفة والبحوث الفارغة .

وبالجمله أن الأمم المتمدنة قد أصبحت فريسة المدنية الممســوخة والأدواء الخلقية والاجتماعية الفاتكة . حتى صارت لاتجــدر لحمل الرسالة المقدسة والجهاد فى سبيلها وإغاثة الانسانية الملهوفة إذ كانت أكبر وكر من أوكار الفساد وأعظم عله من علل شقاء الانسانية .

نظرت الحكمة الالهية إلى عرب اهل الأرض وعجمهم فمقتهم واصطفت لنشأة العالم الثانية الأمة العربية ولم تكن دون الأمم الوثنية الأخرى فى عبـادة الأصنام وإنحطاط الأخلاق غير انها لم تلحقها عدوى المدنية المصطنعة والحضارة المزوره والرذائل التى تأتى بها الحكومات وتحملها العبودية السياسية والروحية ثم اجتبى منها فرداً كان نسيج وحده فى طيب عنصره وزكاء فطرته وعلو همته وقوة جأشه وصدق عزيمته ، وعفاف نفسه وعزوفه عن الشهوات وكان أية فى الشجاعة والثبات بحيث لو عارضه الجن والبشر وعاداه البر والبحر لمـا ضعف ولا استكان ولو وضعت على يمينه الشمس وعلى يساره القمر لما تحير ولا تخير لو راودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه لعصى وأبى . ولو عرضت عليـه الرئاسة والملك وكنوز الأرض ومفاتيح الخزائن لرفضها من غير تأن ، فلم يكن أحد أجدر منه لحمل الرسالة ولا أقوى عليها منه فى مثل هـذه الساعة العصيبة وفى أشد يوم من أيام الحرج ولم يكن فى النوع الانسانى فرد يوزن بالعالم كله فيرجح عليه ويتألب عليه جنود الشيطان وقوى الشر فينتصر عليها ، ويشق طريقه فى عقبات وأشواك حتى يصل إلى نجاح لم يتهيأ لأحد قبله ولا بعده ، فيبدأ المهمة وهو وحيد لاصاحب له وينتقل إلى ربه وقد غير مجرى التاريخ وخلف وراءه أمة فاضلة عادلة قوية متناسقة كانها حلقة مفرغة لايدرى أين طرفاها وذلك كله فى ثلاثة وعشرين سنة .

وكانت العقلية الانسانية قد نضجت وأدركت فاستحقت الرسالة العامه والنبوة الانسانية كلها وقد بلغ النوع الانسانى سن الرشد فاستحق الرسالة الاخيرة والنبوه التى لانبوة بعدها فمنح الله محمدا ﷺ دينا بينا محكماً مفصلا كاملا يسع جميع

شعوب العالم وجميع طبقاتها وكل أفرادها وجميع شؤون حياتهم يغذى العقل وينير الفكر ويوقظ الروح ويربى المواهب الفطرية وكان حياة كامله محيطة بكل مايحتاج إليه الانسان من العقائد والالهيات إلى مايتجدد من شئون المجتمع والمدنيه فى زمان أو مكان ، محكما لاعوج فيه عروة وثقى لا انفصام لها . فلا يقبل النسخ والتبديل ولا يحتاج معه إنسان الى إشتراع أو ابتداع

وكان هذا الدين ثروة يشترك فيها بنى آدم وكانت قسمة كل شعب وفرد قسمة غير ضيرى ومجالا فسيحا لطيران كل فرد وعروجه على السواء فلم يكن فيه سلطان اسرة خاصة ونسل معين (كلكم من آدم وآدم من تراب ، لافضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى) « يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكروأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم » .

فنرى فى العصر الاول سلمان من إيران وصهيبا من الروم وبلالا من الحبش وكثيرا من بنى جلدتهم يساهمون قريشا وأشراف بنى هاشم فى كل فضل وخير ويفضلون كثيرا منهم بالدين والعلم ونسمع عمر خليفة المسلمين يلقب بلال بالسيد ، ثم نرى فى حواضر المملكه الإسلامية ومراكزها الكبرى غير واحد من حديثى الاسلام والعجم يسودون المسلمين الذين ورثوا الدين عن آبائهم والسادة العرب ونرى الملوك والامراء والاشراف يخضعون لفتاويهم وأقضيتهم وكان رئيس المسلمين الدينى وكبيرهم فى كل مدينة كبيرة أيام عبدالملك رجلا من الموالى إلا الكوفة وكان ينادى فى موسم الحج الذى يقصدة المسلمون من كل فج عميق — فى مثل مكة المركز العربى الكبير — الا لا يفت إلا عطاء بن ابى رباح وكان مولى .

مكث الفرس والرومان مدة من الزمان ينظرون الى الاسلام كعدو بغيض والى المسلمين كمغتصبين وأصابتهم دهشة الفتح وسرعان ماتبدلت فكرتهم ونظرتهم وفتحوا للإسلام أبواب صدورهم المقفلة وعقولهم المعطلة فأصابوا من مائدته البسيطة الممتدة على كل ناحية من نواحى الأرض فضربوا فى حسنات الاسلام بسهم وافر وفاقوا كثيرا من العرب فى العلوم الدينية والفضائل الاسلامية فكان فيهم مثل أبى حنيفة ومحمد

ابن اسماعيل البخارى ومسلم بن الحجاج النيسابورى وأبى داود السجستانى وأبى عيسى الترمذى الى امام الحرمين الجوينى وحجة الاسلام الغزالى الطوسى وكثير من النوابغ والعبقريين المسلمين الذين يتحدرون من اصول عجمية وملوك مجاهدين صالحين كنور الدين الزنجى وصلاح الدين الكردى وملكشاه السلجوقى وشمس الدين ألتمش سلطان الهند وناصر الدين محمود وغياث الدين بلبن ومحمود شاه الكجراتى ومظفر الحليم ومحمود كاوان الدكنى واورنك زيب التيمورى الذين لا يزالون موضع الأعجاب من المؤرخين وظهر فى التاريخ الاسلامى أسر حديثة العهد بالاسلام تحكم المسلمين كسلاجقة نيسابور وزنج الشام واكراد مصر وآل عثمان فى تركيا واسرة المملوكين فى الهند ومماليك مصر وهكذا جمع الاسلام للعجم بين السياده العلمية والروحية والسيادة السياسية وذلك اقصى ما وصلت اليه امة فى دين جديد .

وقد حلت رحمة الاسلام ببلاد أوربا عن طريق الأندلس وتألق الاسلام نجما فى سمائها ثمانية قرون ولم يكن عرب الأندلس مثلا كاملا فى روح وتمثيل الاسلام والأخلاق الاسلامية ولا شك انهم لم يكونوا كأصحاب النبى ﷺ فى الاخلاص والحماسة للدعوة الاسلامية والتأثير فى اخلاق الأمم وعقولها ولكنهم كانوا - على علاتهم - افضل جدا من الأوربيين فى الدين والأخلاق والعلم والعقل ، عندهم كتاب منزل ودين محكم وشريعة مدونة ، ومنحت اوربا فرصة طويلة للتدبر فى ذلك الدين والنظر فى كتابه المبين و فهم شريعته السمحاء .

ولكن اوربا لم تهتبل هذه الفرصة السعيدة ولم تنتفع بها فاهلكتها العصبيه الصليبية والكبر الاقليمى الذى لا يزال شعارها حتى اليوم ، وهذا ما ورثته عن اليونان المتكبرة وروما المغترة فلم تزل تنظر الى مسلمى الأندلس نظرا شزرا نظر العداوة والبغضاء والحسد والشحناء وقد استفادت من مهارتهم فى الطب ونبوغهم فى الفلسفة كلما اضطرت الى ذلك ولكنها لم تنتفع بملاك امرهم وراس مالهم وجوهرتهم الغالية وهى (الاسلام) حتى فى القرن الخامس عشر المسيحى جن جنونها فاجلت مسلمى الأندلس من ارضها الى افريقيا وتمادت فى جهلها وطغيانها الى ان طمست آثارهم الدينية والثقافية التى كانت ذخيرة ثمينة لأوربا ايضا واجلت الاسلام من تلك البلاد فأجلت بجلائه رحمة سماوية اظلتهم ثمانية قرون .

فكان عاقبة هذا ان نهضة اوربا العلمية والعقلية (Renaissance) تأخرت لعدة قرون وجاءت نهضة خرقاء هو جاء اذ كانت على غير هدى وعلى غير اساس دينى خلق فوقعت اوربا وغيرها من الامم العالم فى هوة اللادينية وعبودية المادة اذ لم يكن فى اوربا بعد جلاء المسلمين منها من يرشدهم الى الدين الصحيح والأخلاق الفاضلة التى هى اساس المدنية والمجتمع ولم يكن فيها بعد المسلمين من يساعدهم فى الجمع بين الدين والعقل وسعادة الدنيا والآخرة اما الديانة التى تدعو اليها الكنيسه النصرانية فكانت اوهاما وعصبية ومجموع تاويلات الأحبار والرهبان وتفسيراتهم الغامضة المعقدة والأقوال المتضاربة المضطربة والجغرافية المسيحية المقدسة والتاريخ المقدس الذى لا يؤيده العلم ولا يوافق عليه العقل وكل ذلك ما يبغض اليها الدين ورجاله أما الأمور التى هى دعامة العلم الصحيح والعمل النافع كمعرفة الخالق وصفاته والوحى والنبوة الحياة الآخرة فلا قبل لأوربا بمعرفتها ولا سبيل لها الى الوصول اليها فكانت لذلك عاجزة عن تعيين غاية الحياة وموقف الإنسان من هذه الحياة والكون ومركزه فى العالم .

فكانت النتيجة الاولى ان اوربا ركبت عمياء فى سفرها وخبطت خبط عشواء فى حياتها شغلها البحث فى الآفاق وعلم الكائنات عن خالق الارض والسموات فلم يصل من الخلق الخالق ومن الكثرة الوحدة وتكدست عندها المعلومات والاكتشافات ولم تستطع أن تسلكها فى سلك ولم توفق ان تنفخ فيها روح الحياة وتهتدى الى مركزها وتستعملها فى صالح الانسانية وسعادتها .

والنتيجة الثانية انها لما حرمت الدين وروحه حرمت الضمير الحى والقلب الحساس والشعور الرقيق وتهذيب النفس والتغلب على الشهوات فلم تزل فى رقى وعلو فى العلوم وتظفر بفتح بعد فتح فى الدائرة الطبيعية ولكنها لم تزل فى انحطاط وسقوط فى الروح والأخلاق حتى انتهت فى سفرها الى منزل جمعت هناك بين ذكاء الحكماء والفلاسفة ومقدره الجن والعفاريت أما الأخلاق والأعمال فتنازلت الى طباع الأطفال وميول الشياطين ، امتلكت للقوى والوسائل التى سخرت لها الهواء والماء والبرق والبخار والحرارة والقوة ولكنها ظلت محرومة عن المقاصد الصحيحة وميول الخير التى لا تحصل إلا بفضل الدين الصحيح والتربية

الخلقية فاصبحت هذه الوسائل إما ضائعة فى مقاصد حقيرة لاتنفع الأنسانيه شيئا او مضرة تستعمل فى دمار الأنسان وتخريب الحضارة نفسها وقد تسلط شيطان الأثرة على اوربا بأسرها فأمم تفتك بالأمم وطبقات تغزو الطبقات وافراد ينحرون الأفراد ولم تقف عند هذا الحد بل وصلت فى الأخير الى القوة الذرية التى تأتى على الحرث والنسل وتجعل البلاد الواسعة قاعا صفصفا .

اضاعت اوربا مواهبها وثمرات عقولها وعلومها باعراضها عن هداية الدين فعادت كلها وبالا عليها وعلى العالم ولاشك انها تملك مادة واسعة من العلوم وتفاصيلها التى قد لاتحتاج اليها ولكنها تجهل الأصول والمبادىء للحياه الأنسانية واعرضت عن العمل بها ولا ريب انها حلت الغازآ عديدة معقدة شديدة التعقد ولكنها عجزت عن حل اللغز الأكبر لغز حياتها فكانت كما قال الدكتور محمد اقبال فى بعض قصائده يشير الى بعض غرائب الغرب .

« من الغريب ان من اقتنص اشعة الشمس لم يعرف كيف ينير ليله وكيف يصبح وان من بحث عن مسالك النجوم وطرقها لم يستطع ان يسافر فى بيداء أفكاره ومن عكف على الألغاز يحلها ويشرحها لم يستطع ان يميز النفع من الضرر .

ولا سبيل لأوربا الآن الا ان تتشجع وتعترف بانها افلست افلاسا شائنا فى الأخلاق والروح وفشلت فى الحياه فشلا تاما وتستغيث الدين الاسلامى والهداية المحمدية ، الهداية التى تمنحها غاية الحياة الصحيحة وتنفخ فيها روح الحياة وترشدها الى خالق الكون ومدبره وتمنحها فى ذلك علما واضحا غير ملتبس فتجمع لها بين الحب والخوف وطالما فرق بينهما فلم يكن الأول إلا على حساب الثانى وتبعث فيها الايمان بحياة بعد هذه الحياة . إيمانا يحول بينها وبين الجنايات والخيانات الفردية والاجتماعية والخلقية والسياسية ويلقى على عاتقها مسئولية تجعل منها أمة أمينة تخاف الله فى السر والعلن وتتقى الفواحش ماظهر منها ومابطن .

ثم لابد هنا من سيرة إنسان كامل يستطيع أن يكون إماما وقدوة فى كل شأن من شئون البشر وفى كل عصر من العصور وأن يكون مثلا كاملا فى العبادة والتقوى والأخلاق والسلوك والسياسة والاجتماع وفى السلم والحرب والرضا والغضب والضعف والقوة وفى الحياة المنزلية والزوجية والفردية والاجتماعية ويصلح أن يكون المثل كأخ ووالد وزوج وصديق وقاض وامير وغنى وفقير

وتاجر وحاكم وقائد جيش وعاهل أمة ذلك هو محمد ﷺ الذى لايزال المثل الوحيد للبشرية فى أطوارها ومختلف أدوارها ثم لابد لتلك السيرة أن تكون محفوظة بتفاصيلها وان تكون وثيقة تاريخية لايشك فيها .

ثم تتبع ذلك وتعضده تراجم رجال اهتدوا بتلك السيرة واحتذوا بها فى عصر زاه متمدن فى أكبر مراكز الحياة والمدينة مع حمل أعباء الحكومة واحتمال تكاليفها ولم تزل قدمهم عن صراط الأخلاق والمبادىء ولم تفتنهم فتنة المال والقوة ولم تمل بهم صهباء الحكومة والسيادة عن حياة الزهد والقناعة اولئك أصحاب محمد ﷺ ومن تبعهم باحسان .

هذا مع شرائع عادلة للمجتمع الانسانى وآداب حكيمة للاخلاق وأحكام واضحة للسياسة وحدود فاصلة للحياة لو حافظت عليها أوربا كانت بنجوة عن رهبانية المسيحية ومادية العصر الحاضر وغلو البراهمة وتطرف الفرس وتقشف الرواقيين وغلاظة الرومان وخلاعة اليونان ، هنالك تحل الانسانية والفكرة الآفاقية محل القومية الوطنية ، والايثار مكان الأثرة ، والاقتصاد بدل الاسراف ، والقناعة بدل الشره والنهامة، والهدوء والسلام بدل القلق والاضطراب والتعاضد والتعاون .

ان هذا المعين الصافى للحياة على كثب من أوربا فى متناول يدها ولكن الاستقاء منه يحتاج الى شجاعة كبيرة وذلك ماتحجم عنـــه أوربا وتروغ عنه سادتها وكبرائها ، انهم يستطيعون ان يدمروا الشعوب والبلاد ويحولوا العالم كله الى خراب ـ يشاهدوا الامم تخوض الغمرات وتعانى السكرات وتقلها الجراحات ويشاهدوا حضارتهم تنتحر بخنجرها وينهار صرحها ويتداعى قصرها ولكنهم لا يستطيعون ـ لكبرهم وعنادهم ـ أن يعترفوا بأنهم فشلوا فى مهمتهم وان حضارتهم قد افلست وان سياستهم قد خابت واخفقت وان علومهم قد اضرت بهم وان عقولهم قد خدعتهم انهم لايزالون يحكمون الخونة الجائرين ويخضعون للزعماء الجاهلين والحكماء الفاسقين ويرجعون فى التداوى إلى المتطبيين المشعوذين ولكنهم يأبون أن يرجعوا إلى أمى ﷺ وماذلك الا لانهم رفعوا الستار عن أسرار الكون وسخروا البرق والبخار وملأوا الدنيا كتبا فى كل علم وفن فكيف يسوغ لهم أن يراجعوا من لا يعرف صناعة الكتابة ولا يعلم فن القراءة ، أن مثل هذا الكبر والأنانية دفعت أجيالا من البشر إلى الهاوية وذلك داء أوربا العضال .

أما الأقطار الشرقية التى تقتفى إثر اوروبا فى كل شىء فهى أسوأ حالا من اوروبا لأن هذه الاقطار الشرقية قد أفلست قديما فى دياناتها وروحها وفقدت بقايا الوحى والنبوة ولم تصل إلى ما وصلت اليه اوروبا من العلم والعقل والوعى السياسى والشعور بالواجب والاخلاص فى القومية أو الوطنية والمحافظة على النظام فليست عندها قوة روحية ولا شريعة سماوية وكذلك ليس عندها ما تمتاز به اوروبا من العلم والمدنية والتربية السياسية والاخلاق الاجتماعية فاذا عاشت اوروبا بفضل نظامها وإتقان شئونها مدة من الزمن لم تستطيع هذه الاقطار أن تسلخ عقودا من السنين فما نالت الاستقلال إلا وظهرت الفوضى فى السياسة والاجتماع والانحلال والفساد فى الاخلاق وفشت الخيانات وعمت الرشوة ونفقت السوق السوداء وضج الناس من جور الحكام وحيفهم وخيانة الوزراء وإسرافهم فى أموال الامة وبطالة العمال وجناياتهم واحتكار التجار ومغالاتهم فى الاثمان وعيل صبر الناس وسئموا الحياة وتمنوا الموت والهجرة من الاوطان .

ان دواء هذه العلل التى أصيبت بها هذه البلاد هو مخافة الله عز وجل والايمان بالبعث بعد الموت ولكن هذه المخافة لن تصدر من فلسفة مهما كانت قديمة مرت عليها العصور ولا من شعر مهما كان أعلق بالنفوس ولا من تاريخ مهما كان مؤثرا رائعا . ان مصدر هذه النفسية ومنبع هذا اليقين هو الدين الذى جاء به الانبياء فى عصورهم وجاء به محمد ﷺ للابد ولا تزال أبوابه مفتوحة لكل طارق .

يحتوى تاريخ كل بلاد على تعاليم عالية وحكم سامية وأمثال فائقة للمروءة والكرم وروايات شائقة للايثار والتضحية والوفاء والسماحة والامانة والشجاعة ولا بأس أن تذكر هذه المآثر فى الحفلات التاريخية والمجامع العلمية ولا بأس بأن يغتبط بها الانسان فى بلاد ويروبها ويتغنى بها الشعر والادب ولاريب أنها تراث ثمين يجب أن تحتفظ به الحكومات الوطنية ويستفيد منه المؤرخون والمؤلفون .

أما استخراج عجلة الحياة الانسانية الثقيلة التى غاصت فى الوحل فلا يمكن بالعلوم الانسانية ولا المعانى الشعرية ولا النكت الأدبية ولا الروايات التاريخية ولا البحوث الفلسفية ولا النظم السياسية ولا يمكن تحويلها من جهة الشر الى الخير وتسييرها على خط الأخلاق الدقيق الا بقوة الدين المتغلغل فى الاحشاء الراسخ

فى الاذهاء الذى يملك على الانسان مشاعره ويقهر شهواته وكل يعلم كيف غاصت هذه العجلة فى القرن السادس المسيحى وأعيا الناس أمرها حتى قطعوا منها الرجاء هنالك جاء محمد ﷺ لا يملك قوة مادية ولا يملك وسائل التعليم والدعاية والطباعة فدفعها بقوته النبوية وقوة الدين الذى جاء به والايمان الذى يدعوا اليه فوثبت من مكانها ولم تزل سائرة والركب الانسانى هذه القرون المتطاولة ، ان هذه القوة لا تزال كامنة فى هذا الدين الخالد والكتاب المحفوظ وهى على استعداد تام لانجاد البشر واغاثة الامم اذا أرادت ذلك وطابت به نفوسها .

وطبعا تلك الثروة والقوة أقرب إلى آسيا منها الى أوربا والانتفاع من تلك النعمة الجليلة أيسر للامم الشرقية والاسيوية بالنسبة الى الامم الغربية ثم انها أقرب الى الامم والحكومات التى تدين بالاسلام منها الى الامم التى لا تدين به وهى فى أحضانها يتلون كتاب الله ويؤمنون بالرسالة واليوم الآخر ويلفظون بكلمة الاسلام ، فلهم فى كل حين ان يحكموا هذا الدين فى حياتهم ويحلوا به عقد حياتهم التى اعيتهم ويداووا به أمراضهم التى نهكتهم فاذا لم يفعلوا ذلك وهلكوا كانت كارثة كبيرة وكانت مهزلة لم يشهد التاريخ مثلها .

نرى الناس كيف يسعون فى علاج سقيمهم وكيف يرجعون فى ذلك على كل طبيب بقطع النظر عن جنسيته ووطنيته ودينه وعقيدته ويحضرون له كل ما استطاعوا اليه سبيلا ، فلا تقف فى طريقهم العصبية ولا تمنعهم القومية والوطنية عن اتخاذ طرق التداوى واستخدام الاطباء على اختلاف أجناسهم وأوطانهم .

كذلك على قادة الامم المريضة والساهرين عليها أن يعملوا و يجهدوا أنفسهم فى التماس دوائها والسعى لشفائها ، فكارثة أمة بأسرها أفجع من كارثة أسرة أو فرد وان حق الامم المريضة على قادتها وزعمائها أكبر من حقوق المرضى على ممرضيهم وأقاربهم فلا يستغرب اذا نقبوا لذلك فى البلاد واتخذوا فى الارض نفقا وإلى السماء سلما وغاصوا فى البحار يلتمسون لها الدواء ، لكن لا حاجة الى هذا التنقيب والعناء فالاسلام أقرب اليهم من ذلك وأيسر وهو مستعد دائما لا نجادهم اذا اتسعت له صدورهم وطرحوا العصبية جانبا والقرآن يخاطب أبناء القرن العشرين كما خاطب أبناء القرن السادس المسيحى قائلا : (لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور ويهديهم الى صراط مستقيم)

(٦)

من غار حراء

« من غار حراء حيث تعبد الرسول وتحنث ، أوحيث هبط الوحى بالتنزيل ، انبعث النور الذى رشد ، والمفتاح الذى فك المغاليق ، والرسول الذى قاد البشرية فأصلحها واسعدها واعلاها ! . .

ولقد اظلمت المسالك اليوم فهى بحاجة إلى مصباح ، واغلقت ابواب الخير والحق فهى بحاجة إلى مفتاح ، وتاهت البشرية فهى بحاجة الى هدى الرسول يحقق لها النجاح والفلاح . . . افما آن للعالم المعتل ان يطلب الدواء من الشريعة الغراء ، شريعة صاحب حراء ؟ ! . . »

الشرباصى

من غار حراء

طلعت جبل النور ووقفت على غار حراء وقلت لنفسي، هنا أكرم الله بالرسالة محمداً صلى الله عليه وسلم ونزل عليه الوحي الأول فمن هنا طلعت الشمس التي أفاضت على العالم نوراً جديداً وحياة جديدة، إن العالم ليستقبل كل يوم صباحاً جديداً وحياة جديدة إن العالم صباحاً لا جد فيه ولا طرافة، ولا خير فيه ولا سعادة. وما أكثر ما استقبل العالم صباحاً استيقظ فيه الانسان ولم تستيقظ فيه الانسانية، واستيقظت فيه الاجسام ولم تستيقظ فيه القلوب والأرواح. وما أكثر النهار المظلم والصبح الكاذب في تاريخ العالم. ولكن من هنا طلع الصبح الصادق الذى أشرق نوره على كل شيء واستقظ فيه الكون وتغير مجرى التاريخ.

لقد كانت الحياة كلها أقفالا معقدة وابوابا مقفلة، كان العقل مقفلا اعيا فتحه الحكماء والفلاسفة كان الضمير مقفلا اعيا فتحه الوعاظ والمرشدين، كانت القلوب مقفلة اعيا فتحها الحوادث والآيات، كانت المواهب مقفلة اعيا فتحها التعليم والتربية والمجتمع والبيئة، كانت المدرسة مقفله اعيا فتحها العلماء والمعلمين كانت المحكمه مقفلة اعيا فتحها المتظلمين والمتحاكمين، كانت الأسره مقفلة اعيا فتحها المصلحين والمفكرين كان قصر الأماره مقفلا اعيا فتحه الشعب المظلوم والفلاح المجهود والعامل المنهوك وكانت كنوز الأغنياء والأمراء مقفلة اعيا فتحها جوع الفقراء وعرى النساء وعويل الرضعاء، لقد حاول المصلحون الكبار والمشترعون العظام فتح قفل من هذه الأقفال ففشلوا واخفقوا، فان القفل لا يفتح بغير مفتاحه وقد ضيعوا المفتاح من قرون كثيرة. وجربوا مفاتيح من صناعتهم ومعادنهم فاذا هي لا توافق الأقفال واذا هي لا تغني عنهم شيئا؛ وحاول بعضهم كسر هذه الاقفال فجرحوا أيدهم وكسروا آلتهم.

في هذا المكان المتواضع، المنقطع عن العالم المتمدن، على جبل ليس بمخصب ولا بشامخ تم مالم يتم في عواصم العالم الكبيرة ومدارسه الفخمة ومكتباته الضخمة هنا من الله على العالم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وفي رسالته عاد هذا المفتاح المفقود إلى الانسانية، ذلك المفتاح هو (الايمان بالله الرسول واليوم الآخر) ففتح به هذه

الأقفال المعقدة قفلا قفلا وفتح به هذه الأبواب المقفلة بابا بابا ، وضع هذا المفتاح النبوى على العقل الملتوى فتفتح ونشط واستطاع ان ينتفع بآيات فى الآفاق والأنفس ويتوصل من العالم إلى فاطره ومن الكثرة إلى الوحدة ويعرف شناعة الشرك والوثنية والخرافات والاوهام وكان قبل ذلك محاميا مأجورا يدافع عن كل قضية حقا وباطلا . وضع هذا المفتاح على الضمير الانسانى النائم فانتبه وعلى شعور الميت فانتعش وعاش وتحولت النفس الأمارة بالسوء مطمئنة لا تسيغ الباطل ولا تتحمل الاثم حتى يعترف الجانى أمام الرسول بجريمته ويلح على العقاب الأليم الشديد وترجع المرأة المذنبة إلى البادية حيث لا رقابة عليها ثم تحضر المدينة وتعرض نفسها للعقوبة التى هى أشد من القتل ، ويحمل الجندى الفقير تاج كسرى ويخفيه فى لباسه ليستر صلاحه وأمانته عن أعين الناس ويدفعه إلى الأمير لأنه مال الله الذى لا يجوز الخيانة فيه . كانت القلوب مقفلة لا تعتبر ولا تزدجر ولا ترق ولا تلين فأصبحت خاشعة واعية تعتبر بالحوادث وتنتفع بالآيات وترق للمظلوم وتحنو على الضعيف وضع هذا المفتاح على القوى المخنوقة والمواهب الضائعة فاشتعلت كاللهيب وتدفقت كالسيل واتجهت الاتجاه الصحيح فكان راعى الابل راعى الامم وخليفته يحكم العالم واصبح فارس قبيلة وبلد قاهر الدول وفاتح الشعوب العريقة فى القوة والمجد ، وضع المفتاح على المدرسة المقفلة وقد هجرها المعلمون وزهد فيها المتعلمون وسقطت قيمة العلم وهان المعلم فذكر من شرف العلم وفضل العالم والمتعلم والمربى والمعلم وقرن الدين بالعلم حتى كانت له دولة ونفاق واصبح كل مسجد من المساجد وكل بيت من بيوت المسلمين مدرسة واصبح كل مسلم متعلما لنفسه معلما لغيره ووجد أكبر دافع إلى طلب العلم وهو الدين . وضعه على المحكمة المقفلة فأصبح كل عالم قاضيا عادلا وكل حاكم مسلم حكما مقسطا ، واصبح المسلمون قوامين لله شهداء بالقسط ، وجد الايمان بالله وبيوم الدين فكثر العدل وقل الجدل ، وفقدت شهادة الزور والحكم بالجور ، وضعه على الأسرة المقفلة وقد فشا فيها التطفيف بين الوالد وولده ، والاخ واخوته ، والرجل وزوجته ، وتعدى من الاسرة إلى المجتمع فظهر بين السيد وخادمه والرئيس والمرؤس والكبير والصغير ، كل يريد أن ياخذ ماله ولا يدفع ما عليه وأصبحوا مطففين إذا اكتالو

على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، فغرس فى الاسرة الايمان وحذرها من عقاب الله وقرأ عليها قول الله (يا أيها الناس اتقو ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا) وقسم المسئولية على الاسرة والمجتمع كله فقال (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) وهكذا وجد أسرة عادلة متحابه مستقيمة ومجتمعا عادلا وأوجـد فى اعضائه شعورا عميقا بالأمانة وخوفا شديدا من الآخرة حتى تورع الامراء وولاة الأمور وتقشفوا واصبح سيد القوم خادمهم ووالى الأمه كولى اليتيم ان استغنى استعف وان افتقر أكل بالمعروف وأقبل إلى الأغنياء والتجار فزهدهم فى الدنيا ورغبهم فى الآخرة وأضاف الأموال إلى الله فقرأ (وانفقوا بما جعلكم مستخلفين فيه) وقرأ (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) وحذرهم من الاكتناز وادخار الأموال وعدم الانفاق فى سبيل الله ، فقرأ عليهم (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

ابرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفـرد الصالح المؤمن بالله الخائف من عقاب الله الخاشع الأمين المؤثر للاخرة على الدنا المستهين بالمادة المتغلب عليها بايمانه وقوته الروحية يؤمن بأن الدنيا خلقت له وانه خلق للاخرة فاذا كان هذا الفرد تاجراً فهو التاجر الصدوق الأمين وإذا كان فقيرا فهو الرجل الشريف الكادح وإذا كان عاملا فهو العامل المجتهد الناصح وإذا كان غنياً فهو الغنى السخى المواسى وإذا كان قاضيا فهو القاضى العـادل الفهم . وإذا كان والياً فهو الوالى المخلص الأمين وإذا كان سيداً رئيسـا فهو الرئيس المتواضع الرحيم . وإذا كان خادما أو أجيرا فهو الرجل القوى الأمين . وإذا كان أمينا للاموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم . وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلامى وتأسست الحكومة الإسلامية فى دورها . ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مكبرة لأخلاق الافراد ونفسيتهم فكان المجتمع مجتمع صالحا

أميناً مؤثراً للاخرة على الدنيا متغلبا على المادة غير محكوم لها . انتقل اليه صدق التاجر وأمانته وتعفف الفقير وكدحه ، واجتهاد العامل ونصحه ، وسخاوة الغنى ومواساته ، وعدو القاضى وحكمته ، واخلاص الوالى وأمانته ، وتواضع الرئيس ورحمته ، وقوة الخادم وحراسة الخازن ، وكانت هذه الحكومة حكومة واشدة مؤثرة للمبادىء على المنافع والهداية على الجباية وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياة عامة كلها ايمان وعمل صالح وصدق وإخلاص وجد واجتهاد وعدل فى الأخذ والعطاء وانصاف النفس مع والغير .

وقد ذهلت فى حديثى لنفسى . وتمثلت لى الجماعات الإسلامية الأولى بجمالها وتفاصيلها كأنى اشاهدها واتنفس فى جوها وانقطعت الصلة بينى وبين العالم المعاصر .

وحانت منى التفاتة إلى هذا العصر الذى نعيش فيه فقلت انى لأرى أقفالا جديدة على أبواب الحياة الانسانية وقد قطعت الحياة مراحل طويلة وخطت خطوات واسعه وتعقدت الحياة والتوت وتطورت المسائل وتنوعت وتساءلت هل يمكن فتح هذه الاقفال الجديدة بذلك المفتاح العتيق ؟ وابيت أن أحكم بشيء حتى أختبر هذه الاقفال وأضع عليها المفتاح ولمست هذه الاقفال بالبنان فاذا هى الاقفال القديمة بتلوين جديد ، وإذا المشاكل نفس مشاكل العصر القديم واذا المشكلة الكبرى وأساس الأزمة هو الفرد الذى لايزال لبنة المجتمع وأساس الحكومة ، ووجدت ان هذا الفرد قد أصبح اليوم لايؤمن إلا بالمادة والقوة ولايعنى الا بذاته وشهواته وانه يبالغ فى تقدير هذه الحياة ويسرف فى عبادة الذات وارضاء الشهوات وقد انقطعت الصلة بينه وبين ربه ورسالة الانبيا. وعقيدة الآخرة فكان هذا الفرد هو مصدر شقاء هذه المدنية فاذا كان تاجرا فهو التاجر المحتكر النهم الذى يحجب السلع أيام رخصها ويبرزها عند غلائها ويسبب المجاعات والأزمات . واذا كان فقيراً فهو الفقير الثائر الذى يريد من يتغلب على جهود الآخرين بغير تعب . واذا كان عاملا فهو العامل المطفف الذى يريد ان يأخذ ماله ولا يدفع ماعليه ، وإذا كان غنياً فهو الغنى الشحيح

القاسى الذى لارحمة فيه ولاعطف ،وإذا كان واليا فهو الوالى الغاش الناهب للاموال ، وإذا كان سيدا فهو الرجل المستبد المستأثر الذى لايرى إلا إلى فائدته وراحته ، وإذا كان خادما فهو الضعيف الخائن ، وإذا كان خازنا فهو السارق المختلس للاموال ، وإذاكان وزير دولة أو رئيس وزارة أو رئيسا جمهورية فهما المادى المستأثر الذى لايخدم إلا نفسه وحزبه ولا يعرف غيره، وإذاكان زعيما أو قائداً فهو الوطنى أو الجنسى الذى يقدس وطنه ويعبد عنصره ويدوس كرامة البلاد الأخرى والشعوب الأخرى ، وإذا كان مشترع فهو الذى يسن القوانين الجائرة والضرائب الفادحه ، وإذا كان مخترعا اخترع المدمرات والناسفات ، وإذا كان مكتشفا اكتشف الغازات المبيدة للشعوب المخربة للبلاد والقنبلة الذرية تهلك الحرث والنسل ، وإذا كان فيه قوة التطبيق والتنفيذ لم ير بأسا بالقاء هذه القنابل على الامم والبلاد .

وبهؤلاء الأفراد تكون المجتمع وتأسست الحكومه فكان مجتمعا ماديا اجتمع فيه احتكار التاجر وثورة الفقير وتطفيف العامل وشح الغنى وغش الوالى واستبداد السيد وخيانة الخادم وسرقة الخازن ونفعية الوزراء ووطنية الزعماء واجحاف المشترع وإسراف المخترع والمكتشف وقسوة المنفذ وبهذه النفسيات المادية تولدت أزمات طريفة ومشاكل معقدة تشكو منها الانسانية بثها وحزنها كالسوق السوداء وفشو الرشوة والغلاء الفاحش واختفاء الاشياء والتضخم النقدى . أصبح المفكرون والمشترعون لايجدون حلا لهذه المشاكل وأصبحوا إذا خرجوا من أزمة واجهوا أزمة أخرى بل ان حلولهم القاصرة ومعالجتهم المؤقته هى التى تسبب أزمات جديدة وتنقلوا من حكومة شخصية إلى ديمقراطيه إلى دكتاتوريه ثم إلى ديمقراطية ومن نظام رأسمالى إلى نظام اشتراكى إلى شيوعى وإذا الوضع لايتغير لان الفرد الذى هو الاساس لايتغير ويجهلون أو يتجاهلون فى كل ذلك أن الفرد هو الفاسد المعوج ولو عرفوا ان الفرد هو الاساس وانه فاسد معوج لما استطاعوا اصلاحه وتقويمه لانهم على كثرة مؤسساتهم العلمية ودور التعليم والتربية والنشر - لايملكون مايصلحون به الفرد ويقومون اعوجاجه ويحولون اتجاهه من الشر إلى الخير ومن الهدم إلى البناء لانهم أفلسوا فى الروح وتخلوا عن

الايمان وفقدوا كل مايغذى القلب ويغرس الايمان ويعيد الصلة بين العبد وربه وبين هذه الحياة والحياة الأخرى وبين المادة والروح وبين العلم والأخلاق وفى الأخير أدى بهم إفلاسهم الروحى ومادتهم العمياء وإستكبارهم إلى استعمال آخر ماعندهم من آلات التدمير التى تبيد شعبا بأسره وتخرب قطرا بطوله حتى استهدفت الحضارة والحياة البشرية - إذا تبادلت الدول المتحاربه استعمال هذه الآلات للنهاية الأليمة.



(٧)

بين الجباية والهداية

(إنما تقوم الحكومات فى الأصل لتحكم بالحق والحكمة ، ومن هنا كان اشتقاق اسمها ، ولكن الحكومات تفرقت بها السبيل ، فالكثير منها صار للجباية وحدها تستغل وتجمع وتكنز ظالمة . فتشيع بذلك روح التمرد والخيانة والاهمال ! .

ولقد بعث الله بالاسلام محمداً صلوات الله عليه هادياً لا جابياً . ومتى سبقت الهداية فقد ضمنت الجباية دون ان تقصد . وما تمتع به الأخيار وزادوا عليه رضا الله . وتاريخ الاسلام يفيض بأروع الامثال فى عفة الحاكمين وعدالة القائدين وزهد القادرين . ولن يصلح الأمر اليوم إلا بما صلح به أوله لو كانوا يعقلون) .

الشرباصى

بين الجباية والهداية

الدول والحكومات قسمان ، دولة شعارها الجباية ، ودولة شعارها الهدا وكل لها طابع خاص ونفسية خاصة ، ورجال ممتازون ، ولكل نتائج متميزة فميزان الأشياء ومناط الأحكام فى دولة الجباية هو تضخم الميزانية وكثرة الدخل والايراد ، ورفاهية رجال الحكومة واحتفال الحضارة وزهو المدنية ، وإن كان ذلك بامتصاص دماء الفقراء وشقاء الفلاحين والعملة والضرائب المجحفة والمكوس المرهقة ، فلا يعنى هذا الضرب من الحكومة إلا بما يزيد فى مواردها وماليتها ، وبما يهىء لها أسباب الفخار والزينة والأبهة وبما يهنىء للامراء والوزراء وأبنائهم وأبناء أبنائهم والمتصلين بهم ورجال الحكومة وأسرهم وخدمهم أسباب الترف والتنعم والبذخ ، وبما يبنون به قصورا فاخرة، ويشترون به أملاكا واسعة فى داخل البلاد وخارجها .

تغفل هذه الحكومة تربية الجمهور الدينية والخلقية وتعطل الحسبة والرقابة على الأخلاق والنزعات وتتغافل عن كل ماليس بسبيلها وما لايجر عليها فائدة مالية أو قوة سياسية ، وقد تبيح منكرا أو محرما إذا كانت تجنى منه نفعا وتحرم مباحاً إذا كانت تخاف منه خطراً سياسيا أو خسارة مالية ، ولا يزال الجشع والنهامة للمال تدفعها وتزين لها خطتها حتى تفرض ضرائب على العبادات وعلى الموت والحياة . وهكذا تتحول من حكومة ساهرة على مصالح الجمهور وراحتهم ومن مربية وحارسة للامة إلى شركة تجارية كبيرة لايهمها إلا جمع الأموال وزيادة الأرباح .

أما الدولة التى شعارها الهداية فمهمتها الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ومعيارها تحسن أخلاق الجمهور وسمو روحهم وتحليهم بالفضائل وإقبالهم على الآخرة وزهدهم فى الدنيا والقناعه فى المعيشة واجتنابهم المحرمات والمعاصى وتنافسهم فى الخيرات ، ولو كان ذلك على حساب ميزانيتها وخساوة ماليتها ، فتنصب الواعظ وترسل الدعاة وتشجع الحسبة وتمنع الخمور وتنكر على الفجور ، وتحرم الملاهى والمعازف . وتطارد المشتهرين والخلعاء ، وتمنع كل

يفسد على الناس عقيدتهم وأخلاقهم ، ويفسد الحياة المنزلية ، وتغص فى حكمها المساجد وتقفر الحانات ، ويزدهر الدين والتقوى ، وتضمحل المعاصى والجنايات ويقوم أهل الدين والصلاح وينشطون ويتحمسون ، ويتوارى الفجار والملحدون وينكمشون . ويكون ما وصفه الله تعالى « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

تمتاز مضخة حكومة الهداية بأسرها عن مضخة حكومة الجباية بأسرها . تمتاز عنها فى النزعات والروح . والسيرة والمعاملة والسلوك . فنرى فى الأولى التطوع والاحتساب . وروح الخدمة والأيثار والأمانة والتضحية والوفاء . بينما نرى فى رجال حكومة الجباية معاكسة القانون ورجاله والاجتهاد فى معاجزته والتفلت منه . والكبر والتجبر والأثرة والخيانة والنفاق والزور وفشو الرشوة إلى حد يدعو الانسان بين الركن والمقام أن لايبتلى بهم ، فلا ينال الانسان حقه من العدل والراحة ولا يتمتع بحقوقه المدنية إلا اذا رضخ من ماله لهذا وقدم طعمة لذاك . ويستحفل الأمر ويجل الخطب حتى لايرى أحد فى هذه الحكومة أنه خادم أمة وأمين حكومة . لا يعد نفسه إلا جابيا — ولكن لنفسه وعياله — قد منحته الحكومة فرصة جمع الأموال فلا يريد أن تفلته هذه الفرصة ويتخلف عن قافلة الجباة الشخصيين وقد اشتد بها الجد وجد بها السير .

لقد سبق فى التاريخ أمثلة لكل من حكومات الجباية والهداية . أما حكومات الجباية فلا تحتاج إلى تمثيل ولا إلى شرح وبيان . فانها هى السائدة الفاشية فى الماضى والحاضر وفى الشرق والغرب . وقد جربها الانسان وعرفها فى كل عصر . أما حكومات الهداية فهى نادرة جداً . فلنضرب لها مثلا .

بعث محمد صلى الله عليه وسلم فدعا الناس إلى الاسلام فالتفت حوله « فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهه ، لولا يأتون عليهم بسلطان بين . فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً » . وكان هؤلاء الفتيان هدف كل قسوة وظلم واضطهاد وبلاء وعذاب وقد قيل لهم من

قبل «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون .ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» . فصمدوا لكل ماوقع لهم وثبتوا كالجبال وقالوا «هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله .حتى أذن الله فى الهجرة ، ولم تزل الدعوة تشق طريقها وتؤتى أكلها حتى قضى الله أن يحكم رجالها فى الأرض ويقيموا القسط ويخرجوا الناس من الظلمات الى النور ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا الى سعتها . فقد عرف أنهم اذا تولوا وسادوا «أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر» .

وهكذا جاءت الدعوة بالحكومة كما تأتى الأمطار بالخصب والزرع وكما تأتى الأشجار بالفاكهة والثمر ، فلم تكن هذه الحكومة الا ثمرة من ثمرات هذه الدعوة الاسلامية . ولم تكن هذه العزة والقوة الا نتيجة ذلك العذاب الذى تحملوه من قريش وغيرهم وذلك الهوان الذى لقوه فى مكة وغيرها .

جاءت الحكومة بما يتبعها من عزة وشوكة ورجال وأموال وكنوز وخزائن وجباية وخراج ورفاهة ونعيم وكان المجال واسعا جدا لجمع الأموال وحكم الرجال ورفاهة الحال اذا اختاروا طريق الملوك والسلاطين فى فرض الضرائب الكثيرة والاتاوات المتنوعة والمكوس الجائرة .

التفت القوم فإذا دولتهم الوليدة على مفترق الطرق — طريق الجباية وطريق الهداية . هنالك سمعوا هاتفا يقول «ويحكم ان محمدا ﷺ لم يبعث جابيا وإنما بعث هاديا وأنتم خلفائه» . فلم يترددوا فى ايثار جانب الهداية على جانب الجباية واتخاذ الدعوة والهداية شعارا ومبدأ لحكومتهم فكان ذلك .

لقد علموا أنهم لو آثروا جانب الجبايه وأطلقوا أيديهم فى أموال الناس واسترسلوا الى النعيم ورتعوا فى اللذات لم يحل بينهم وبين ذلك أحد ولم يقف فى سبيلهم واقف . ولكنهم علموا أنهم لو فعلوا ذلك لقد غشوا اخوانهم الذين سبقوهم بالايمان وقضوا نحبهم بدون أن يأكلوا ثمار غرسهم ، لقد خانوا أولئك الذين لم يعرفوا إلا الجهاد والتعب والجوع والسغب ولقد وصلوا الى الحكومة

على جسر من متاعبهم وإيثارهم . أفيجوز لهم أن يستغلوها لمصلحتهم وشهواتهم وأبنائهم وأقاربهم ويتمرغوا فى النعيم ويسرفوا فى الأكل والشرب ؟ لقد ظلموا إذن عثمان بن مظعون وحمزة بن عبد المطلب ، ومصعد بن عمير وأنس بن النصر وسعد بن معاذ وكثيرا من رفقتهم الذين لم يروا شيئا من الفتوح والغنائم ولم يشبعوا أياما متوالية ، وقف القوم ولم يطب لهم الأكل والشرب وارادوا ان يلحقوا بأخوانهم ولم يأخذوا من الدنيا إلا البلاغ .

تأسست دولة الاسلام وفتحت فارس وبلاد الروم والشام ونقلت الى عاصمة الاسلام - المدينة المنورة - كنوز كسرى وقيصر وانصبت عليها خيرات المملكتين العظيمتين وانهال على رجالها من أموال هاتين الدولتين وطرفهما وزخارفهما مالم يدر قط بخلدهم ، وقد انقضى على اسلامهم ربع قرن وهم فى شدة وجهد من العيش وفى جشوبة المطعم وخشونة الملبس ، لا يجدون من الطعام الا ما يقيم صلبهم ولا من اللباس الا ما يقيهم من البرد والحر ، فاذا بهم اليوم يتحكمون فى اموال الاباطره والاكاسرة فاذا اراد الواحد منهم ان يلبس تاج كسرى وينام على بساط قيصر لفعل ، لقد كانت والله هذه محنة عظيمة تزول فيها الجبال الراسيات وتطير له القلوب من جوانحها وتعمش له العيون ، ولكنهم سرعان ما فطنوا انهم ما وقفوا بين الفقر والغنى فحسب ، بل انهم خيروا بين ان يتنازلوا عن دعوتهم وإمامتهم ومبادئهم وينفضوا منها يدهم فلا يطمعوا فيها ابدا ، وبين ان يحافظوا على روح هذه الدعوة النبوية وعلى سيرة رجالها اللائقة بخلفاء الأنبياء والمرسلين وحملة الدعوة المؤمنين المخلصين .

كان لهم أن يؤسسوا ملكا عربيا عظيما على أنقاض الدولة الرومية والفارسية وينعموا كما نعم ملوكها وأمرائها من قبل فقد ورثوا إمبراطوريتين ، الفارسية والرومية ، وجمعوا بين موارد دولتين . فاذا كان كسرى يترفه بموارد فارس فقط وإذا كان هرقل يبذخ بموارد الروم فقط ، فهذا عمر بن الخطاب يمكنه أن يترفه بموارد الامبراطوريتين ويبذخ بذخا لم يبذخه أحدهما .

كان له ولأصحابه كل ذلك بكل سهولة ، ولكنهم سمعوا القرآن يقول «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبه للمتقين»

وكأنهم يسمعون نبيهم ﷺ يقول قبل وفاته « لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف ان تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتهلككم كما اهلكتهم » . فهتفوا عن آخرهم قائلين

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة   فاغفر للانصار والمهاجرة

وهكذا حافظوا على روح الدعوة الاسلامية وسيرة الأنبياء والمرسلين وعاشوا فى الحكومة كرجال الدعوة وفى الدنيا كرجال الآخرة ، وملكوا انفسهم فى هذا التيار الجارف الذى سال قبلهم بالمدنيات والحكومات والشعوب والامم ، وسال بالمبادىء والأخلاق والعلوم والحكم .

ما زال الناس يعدون اقتحام المسلمين دجلة بخيلهم وجندهم تحت قيادة سعد بن أبى وقاص ووصولهم إلى الشط الثانى من غير ان يصابوا فى نفس اومال اومتاع حادثا غريبا من اغرب ما وقع فى التاريخ . إن الحادث لغريب ولكن اشد منه غرابة وأدعى للعجب ان المسلمين فى عهد الخلافة الراشدة وعصر الفتوح الاسلامية الأولى خاضوا فى بحر مدنية الروم وفارس وهو مائج هائج وعبروه ولم يفقدوا شيئا من اخلاقهم ومبادئهم وعاداتهم ووصلوا إلى الشط الثانى ولم تبتل ثيابهم ، ولم يزل الخلفاء الراشدون وامراء الدولة الاسلامية من اصحاب النبى ﷺ محتفظين بروحهم ونفسيتهم وزهدهم وبساطتهم فى المعيشة وتخشنهم فى اوج الفتوح الاسلامية .

حكى الطبرى دخول الهرمزان المدينة ومواجهته لعمر رضى الله عنه ، قال : هيئوا الهرمزان فى هيئته فألبسوه كسوته من الديباج الذى فيه الذهب ووضعوا على رأسه تاجا يدعى الآذين مكللا بالياقوت وعليه حليته كيما يراه عمر والمسلمون فى هيئته ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر فى منزله فلم يجدوه فسألوا عنه ، فقيل جلس فى المسجد لوفد قدموا عليه من الكوفة ، فانطلقوا يطلبونه فى المسجد فلم يروه ، فلما انصرفوا مروا بغلمان من أهل المدينة يلعبون ، فقالوا لهم : ما تلددكم تريدون أمير المؤمنين ؟ فانه نائم فى ميمنة المسجد متوسدا برنسه ! وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة فى برنس ، فلما فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه وأخلوه نزع برنسه ثم توسده فنام . فانطلقوا ومعهم النظارة حتى إذا راوه جلسوا دونه : وليس فى المسجد نائم ولا يقظان غيره . والدرة فى يده معلقة ، فقال الهرمزان :

أين عمر ؟ فقالوا : هو ذا ! وجعل الوفد يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه ، وأصغى الهرمزان إلى الوفد فقال : أين حرسه وحجابه عنه ؟ قالوا : ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان ! قال فينبغى له أن يكون نبيا ، فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء . وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالسا ثم نظر إلى الهرمزان فقال : الهرمزان ؟ قالوا : نعم ! فتامله وتأمل ما عليه وقال أعوذ بالله من النار واستعين الله ؛ وقال : الحمد لله الذى أذل هذا وأشياعه ، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فانها غرارة فقال الوفد هذا ملك الأهواز . فكلمه ، فقال : لا حتى لا يبقى عليه من حليته شىء فرمى عنه بكل شىء عليه إلا شيئا يستره وألبسوه ثوبا صفيقا فكلمه (١) .

ويصف ضرار بن ضمرة على ابن أبى طالب فى خلافته بعد وفاة على لمعاوية فيقول : « يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ماخشن ومن الطعام ماجشب ، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه . وقد مثل فى محرابه ، قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين ، وكأنى أسمعه وهو يقول : يا دنيا ، أبى تعرضت أم لى تشوفت هيهات هيهات غرى غيرى ، قد تبتك ثلاثا لا رجعة لى فيك ، فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير . آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشه الطريق (٢) .

كان شعار الدولة الاسلامية الأولى الهداية والدعوة إلى الله وخدمة الناس فكانت الدولة تخسر أموالا عظيمة فى سبيل الاخلاق والدين ، وكانت إذا خيرت بين أرواح الرجال ومبالغ من المال اختارت الأرواح وخسرت الأرباح ، وتطيب بذلك نفسا وتقربه عينا ، وإذا كان عكس ذلك فكسبت الأموال وخسرت الرجال ، حزنت لذلك وحزن المسلمون كحزنهم على ملك زائل وسلطان راحل .

---

١ — تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢١٧ .

٢ — صفة الصفوة لابن الجوزى ج ١ .

وقد فضل الخلفاء الراشدون وخامسهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن يدخل المجوس والنصارى فى الاسلام ويعفوا من الجزية فيخسر بيت مال المسلمين مقدارا عظيما من المال ويكسب الدين الاسلامى والأمة الاسلامية رجالا يتخلصون من النار . وإذا كسب وربح بيت المال على حساب الاسلام حزنوا حزنا شديداً .

حدث الطبرى عن زياد بن جزء الزبيدى ؛ قال : جمعنا فى مصر ما فى أيدينا من السبايا واجتمعت النصارى ، فجعلنا نأتى بالرجل ممن فى أيدينا ثم نخيره بين الاسلام وبين النصرانية فاذا اختار الاسلام كبرنا تكبيرة هى أشد من تكبيرنا حين تفتح القرية . قال ثم نحوزه إلينا . وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه إليهم ووضعنا علية الجزية وجزعنا من ذلك جزعا شديدا ، حتى كأنه رجل خرج منا إليهم (١) .

وهكذا انتشر الاسلام وانتشرت الأخلاق الفاضله فى عقود من السنين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب وتغلغلت الدعوة الاسلامية فى أحشاء المجتمع البشرى ، لم يتمتع العالم الاسلامى بخلافة عمر بن عبد العزيز إلا سنتين وبضع شهور ولكنه بحرصه على الدعوة ومحافظته على شعار الهداية وسيرة خلفاء الانبياء عليهم السلام تمكن من التأثير فى القلوب والعقول ، وقلب تيار المدينة واظهار الدين واخماد الكفر والفسق والقضاء على رسوم الجاهلية مالم تتمكن منه دول اسلامية طويلة الأعمار لتراوحها بين الهداية والجباية وتفضلها الجباية فى أكثر الاحيان على الهداية .

وكانت المدن الاسلامية الكبرى وعواصم الاسلام مركز دعوة وهداية بحيث اذا دخلها الانسان عرف أنه يمشى فى مركز الاسلام ويتنفس فى جوه فيرى الحدود قائمة وأحكام الشرع نافذة ، ولا يجد أحدا يتهاون فى أمر من أمور الدين ويستخف به أو يجاهر باثم ومعصية ، ولا يرى بدعة ولا فجوراً ولا دعارة ولا خدعة ، ولا يسمع برشوة ولا خيانة ولا ماينافى روح الاسلام ، ويسمع الدعوة الى الله وإلى الدار الآخرة وإلى الفضيلة والتقوى واتباع الكتاب والسنة والاجتناب من الشرك والبدعة والتمسك بفضائل الدين فى كل مكان ويرى العمل بذلك فى

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٢٧

الطرقات والمجامع وبيوت الناس ودواوين الحكومة ، فيشبع بروح الدين ويتضلع ايمانا وحماسه وفقها فى الدين ومعرفة بأحكامه وشرائعه وحبا لأهله، فلا يخرج الا وقد استفاد الايمان والعلم والتصلب فى الدين والثقة برجاله وممثليه، وإذا دخلها اجنبى أو حديث عهد بالاسلام عرف مزايا الحياة الاسلامية وفضل حكومة الاسلام وآثر الاقامة فيها وكره ان يفارقها ويعود إلى دار الكفر كما يكره أن يقذف بالنار .

أما الحرمان فقد كان فى الاسلام — المؤسسة على مبدأ الهداية — مدرسة الدين ومهد الحضارة الاسلامية تتمثل فيها الحياة الاسلامية بكمالها وجمالها ويأتى إليهما المسلمون من كل ناحية من نواحى العالم الاسلامى ومن كل فج عميق فيشهدون منافع لهم ويتفقهون فى الدين وينذرون قومهم اذا رجعوا اليهم ، ويحتجون فى بلادهم بما رأوه فى الحرمين فيكون ذلك حجة لمحافظة الحجاز على الدين والسنة وحرص حكومتها على تمثيل الحياة الاسلامية فى مركز الاسلام ومنبعه .

ثم أتى على المسلمين حين من الدهر نسوا أن الحكومة فى الاسلام لم تكن إلا جائزة الدعوة والجهاد فى سبيلها . ولولا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته الى الله ، وما لقى فى مكة والطائف من قريش والقبائل ، ولولا الهجرة والاختفاء فى غار ثور والرباعية المكسورة يوم أحد ، ولولا ماصنع بحمزة يومئذ ، ولو لاقتلى بئر معونة ومصلوب الانصار ، (١) لما دانت الدنيا للعرب ولا كانت دمشق ولا بغداد ، ولا كان لبنى مروان أن يجبوا خراج الروم وفارس ، ولا كان للرشيد أن يقول لسحابة مرت به « أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك » .

أسس ملوك المسلمين بعد الخلافة الراشدة دولهم على مبدأ الجباية والسياسة، وأهملوا الدعوة إلى الله وإلى دار السلام وعطلوا الحدود وأبطلوا الحسبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، ولم تعد مراكز

(١) هو خبيب بن عدى بن مالك الذى قتله بنو الحارث بن عامر وبضعوا لحمه وحملوه على جذعة وهو القائل :

ولست ابالى حين اقتل مسلما على اى جنب كان فى الله مصرعى

الاسلام مدرسة الدين ومرآة لمدنيته واجتماعه بل أصبحت تغرس الشك والنفاق فى قلوب الوافدين وتزعزع عقيدتهم وثقتهم بالدين واهله ، واصبح القاصدون من مختلف أنحاء العالم الاسلامى يكتسبون منها استخفافا بشعائر الاسلام ورقة فى الدين ووهنا فى العمل وسوء ظن بممثلى الاسلام ، ورجعوا يحتجون بالأوضاع الفاسدة فى مراكز الاسلام وبالفوضى الدينية فكانت داهية عظيمة على رجال الاصلاح والدعوة فى الأقطار الاسلامية وفتنة كبيرة .

ليس العالم الاسلامى اليوم بأشد افتقار الى شىء ، منه الى حكومة تمثله تمثيلا صحيحا وتقوم على أساس الدعوة والهداية والنصيحة والخدمة فان الاسلام لايؤثر فى عقول الناس ولا يشفى المتفحصين حتى تكون له رقعة فى الأرض تتمثل فيها حياته وتتجلى فيها مدنيته واجتماعه وتظهر فيها نتائج دعوته وتعاليمه ، فاذا كان ذلك ولو فى رقعة صغيرة كان على الاسلام اقبال عظيم لم يعهد من قرون .

وليس العالم الانسانى بأقل افتقاراً من العالم الاسلامى إلى مثل هذه الحكومة الى شعارها الهداية والاصلاح ، لا الجبايه والكفاح ، فإن الانسانية العليلة جريحة لايسعفها اليوم الا قيام هذه الحكومة التى تتأسس على أساس الفضيلة والدين واحترام الانسانية ، وإيثار الأرواح على الأرباح ، والاخلاق على الأعلاق وكسب الرجال على كسب الاموال ؛ فاذا تأسست هذه الحكومة — مهما كانت صغيرة ومهما كانت مواردها ضيقة — كان ذلك حادثا غريبا يستحق كل تنويه وإشادة ، وقام كبار السياسيين وأصحاب اليراع وقاده الفكر يشيرون اليها بالبنان ويضربون بها الأمثال ، ويؤلفون عنها مؤلفات وأصبح الناس يأوون ليها كما يأوى الغرقى إلى جزيرة فى البحر ، لينعموا فى ظل حكومتها وينفضوا إعنهم غبار الظلم والفتن ويتنفسوا من متاعب المدنية المعقدة المزورة ، والحكومات الجابية الجائرة ، ولكانت هذه الحكومة غرة فى جبين الدهر وشامة بين الحكومات والدول .

إن الانسانية قد جربت حكومات الجباية على اختلاف أنواعها وأسمائها — من شخصية وديمقراطية ورأسمالية واشتراكية — فوجدتها بنات علات لاتختلف

فى اصلها ومبدئها وروحها ونزعتها ، وقلبتها على كل جانب فلم تر منها إلا شرا ومرا ولم تر اختلاف الأسماء يغنى عن شىء ، وإذا تأسست جديدة باسم جديد نادى لسان الحقيقة فى لفظ أبى العلاء المعرى :

ألا إنما الأيام أبناء واحد وهذه الليالى كلها أخوات
فلا تطلبن من عند يوم وليلة خلاف الذى مرت به السنوات

وإذا أضيفت الى هذه الحكومات المعدودة بالمئات حكومة جديدة لاتختلف عن أخواتها إلا أنها يرأسها مسلم أو يديرها عدد من المسلمين لم تكن بدعا ولم تكن شيئا طريفا ينوه به أو يشار إليه بالبنان ، أو تعقد به الآمال ، فان هنالك حكومات تفوق هذه الحكومة عشرات من المرات فى طول مساحتها وضخامة ميزانيتها وكثرة إنتاجها وإصدارها وفى جيشها وأساطيلها وبوارجها الحربية وعدد الطائرات وكثرة المصانع ورقى الصناعة والتجارة واحتفال المدنية والحضارة وحسن الادارة وانتشار العلم فى طبقات الشعب وقلة الأمية إلى غير ذلك مما تمتاز به الحكومات الأوربية .

إن قيام دولة للمسلمين فى بقعة من بقاع الأرض فرصة سعيدة نادرة لاتسنح فى كل حين ، ومثل هذه الفرص - كما يعرف المطلع على السنن الالهية وعلى تاريخ الاديان والدعوات الاصلاحية - قد تسنح بعد قرون ، وتكون من فلتات الدهر وفى قصرها كوميض البرق فى ليلة مظلمة ، وتكون امتحانا عظيما لرجالها كيف يستخدمون هذه الفرصة لدعوتهم ومبادئهم الدينية على حساب مصالحهم الذاتية وراحتهم ولذائذهم ، فاذا انتهزوا هذه الفرصة وعرفوا قيمة الوقت وأحسنوا تمثيل هذه العقيدة والدين الذى ينتسبون إليه وحسن ظن الناس بهم وصدقوهم فى مايقولون فقد خدموا دينهم وأنفسهم خدمة باهرة ، وإن كان غير ذلك فأساءوا استعمالها واستغلوها لمصالحهم الشخصية على حساب الدعوة الدينية ورجالها المخلصين وجهودهم فى سبيل نشر هذه الدعوة وقيام هذه الحكومة كما فعلت الدولة الاموية والعباسية ودول كثيرة ، فقد ضيعوا الفرصة وخسروا دورهم ، وخسرت معهم الدعوة التى وصلت أسبابها بأسبابهم دورها ، وما يعلم أحد متى يعود هذا الدور ، وهل

يعود أولا ؟ فقد شهد التاريخ أمما وجماعات كثيرة ضيعت فرصة حكمها وسلطانها ولم تنتفع بها وانتهى دورها القصير أو الطويل فوقفت مع المتفرجين المنعزلين وبقيت تنتظر دورها فى حلبة الامم وتعض على تفريطها بنان الحسرة و الندم .

هذا وإلى الحكومات الاسلامية ومن كان على رأسها أن ينتهزوا الفرصة ويحرزوا قصب السبق ويبلغوا بهمتهم وعنايتهم إلى حيث لا يبلغ إليه كبار الصالحين والاتقياء بعبادتهم وزهدهم ، وذلك بما آثرهم الله من حول وطول ونفوذ وسلطان وفرص لا تتأتى لغيرهم ، ولهم أن يصلوا فى خدمة هذا الدين وإعادة شبابه واصلاح المجتمع وتغير اتجاهه من الجاهلية إلى الاسـلام فى يوم واحد - اذا أرادوا بذلك وصحت عزيمتهم وصدقت نيتهم - ما لا يصل اليه المصلحون والمؤلفون والعاملون فى أعوام وقرون وينالوا من رضا الله وثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ما يغبطهم عليه كثير من العباد والمتقين وعباد الله الصالحين . وما أطلق الناس على عمر بن عبد العزيز لقب المجدد الكبير والخليفة الراشد إلا بتغييره مجرى الحكومة من الجباية والهداية والاصلاحات التى قام بها وبرجولته وعصاميته فى سبيل مبدأه ، ولو وزن ما تنازل عنه من نعيم زائل ومتاع فان ، وأنواع من لباس وطعام ودواب وأنعام - كان لا بد أن يتركها يوما من الايام - لو وزن ذلك كله بما اكتسب من نعيم لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع وما يرجو من مرافقة محمد ﷺ وأصحابه والالتحاق بحزبه وما جعل الله له من لسان صدق فى الآخرين لرجح ما اكتسب رجحانا واضحا وعد من كبار الأذكياء وعقلاء العالم .



(٨)

بين الإنسانية وأصدقائها

(ما اشقي الانسانية بأعدائها الذين يتظاهرون بأنهم من اصدقائها : يمدونهـا بفتات للموائد وبالى الثياب . ويمنعون عليها بما يقدمونه . وما اتفهه . بينما يسلبونها اعز ذخائرها واغلى هبات ربها لها . من حرية وكرامة وإيمان . وكثيرا مايضعون لها السم فى الدسم ، والداء الوبيل فى العسل ، والويل لنا كل الويل من أثرة المتحكمين ، وجشع المتصرفين ، وبغى القادرين . . .

إن موطن العلة فى الجسم البشرى المتورم هنا أيها المصلح من اخلاقنا »

الشرباصى

بين الانسانية واصدقائها

تحوى الأساطير الهندية كثيراً من الحكم ، يبدوا لنا أن حكماء هذا القطر قد أعربوا عن دقائق الفلسفة فى لغة سهلة وأسلوب جذاب ، وحاولوا نقل الحقائق الجافة الى الحياة العامة ، نحن نستطيع أن نتلقى دروساً قيمة فى الفلسفة والحياة بواسطة هذه الأساطير المتواضعة .

ومن الأساطير والحكايات التى حدثتنا بها فى الصغر الأمهات وعجائز البيت أسطورة امرأة شقية كان جسمها حافلا بالابرات السامة وتوات ضربتها اقتلاع هذه الأبرات فاقتلعتها إبرة إبرة وتظاهرت بالشفقة والاخلاص وتركت الإبرات العينين عمداً فبقيت المرأة تتململ من شدة الألم لا ينطبق لها جفن ولا تكتحل بنوم : ونحن بصدد هذا الجزء من الحكاية فحسب .

اذا فكرت فى الانسانية وأصدقائها ودرست أحوالها لوجدت قصتها تشبه قصة المرأة البائسة تمام الشبه قد تمزق جسمها بالابرات السامة التى دخلت فى جميع هيكلها فتمتد أيدى الغوث والرحمة اليها لتقتلعها ، ولكنها تغفل العينين اللتين لا يقر قرار الرجل الا بسلامتها فلا يتم خلاصها ولا يهدأ بالها . فتغذو وتروح جريحة الهيكل كليمة الروح مضطربة البال ، ثم تستأنف الجهود من غد وتنقطع من غير أن تكمل مهمتها وتبلغ غايتها .

الانسانية تمثل جسم البشرى فى أعضائه وأجزائه فهى جامعة للنواحى الحيوية بأسرها ، فانها تنتظم الجسم والبطن والرأس والقلب والروح والنسمة ، وتحل بهذه النواحى أنواع من البلاء والشقاء ، وهى ابرات جسمها التى تشقى بها وتتجرع على أيديها مرارة الحرمان والألم .

الفاقة والبؤس وفقدان المواد الغذائية الصالحة هى ابرات البطن والمعدة التى تشقى بها الانسانية وتتعذب ، ومن الشقاء للعالم البشرى . ومن المخجلات المنديات أن لا تجد أغلبية البشر الساحقة ماتسد به فاقتها وتشبع به بطنها لسوء تصرف حفنة من البشر فى توزيع المواد الغذائية أو لعسف حكومة جائرة رغم سخاء

القدرة الالهية وثروة الحقول الزراعية وأن لاتجد البشرية حاجتها من الطعام والغذاء بعد أن تفيض الحقول زرعا وتدر الأرض لبناً وعسلا .

الانسان جسد مع الروح . والجسد يشعر بالحرارة والبرودة ، فهو دائما فى حاجة إلى الكسوة واللباس وقد أنزل الله لباساً يوارى سوأت الناس وريشا وألهم الانسان كيف يزرع القطن ، وكيف ينسج الثوب ، واشتغلت الأيدى العاملة فى الحقول والمصانع ، فكانت كميات فائضة من القطن والنسائج ، فمن الجور الفاحش والظلم المبين أن يلجىء إسراف بعض الرجال فى الملابس أو احتفاظهم بها فى صناديق ومستودعات كثيراً من الناس إلى العرى ، أو يكسو الأغنياء جدرانهم ، فلا تجد الفقراء من اللباس مايستر جسمهم ويقيهم البرد والحر .

أن المرء يحمل فى جنبه قلبا نابضا له رغبات وعواطف طبيعية لا ضرر فيها ولا اعتداء فلا يجوز أن يقف الانسان سدا فى سبيلها ، وقد وهب عقلا وذكاءاً ، فلا يجوز لأحد أن يمنعه عن العلم ويحول بينه وبين التفكير ، فاذا فعل ذلك فرد أو حكومة كان الانصاف للانسان المرهق وتحرير فكره خدمة بارة للانسانية وعملا يستحق الشكر والثناء .

الثقافة لاتزدهر ، والمدنية لاترتقى وقوى الرجل الروحية والمادية لا تنمو ابدا . إذا كانت فى البلاد سلطة مستبدة وحكومة غاشمة ، فترى أن الحكومات الأجنبية والدول المستبدة تستولى على وسائل الحياة وتتولى توزيعها فطوراً تستأثر بها وتارة تقسمها قسمة ضيزى . وأخرى تحول بين الأمة وبين منتجاتها وثمرات كدحها وخزائن أرضها . فتعيش فى ديارها عيش الغرباء أو الصعاليك الطرداء فلا تلبث أن تخمد عواطفها وتجمد قرائحها وتضيع مواهبها فتكون أمة خامدة ضائعة . فلا شك أن الاستعمار والاستبداد عدو لدود للانسانية وظلم عظيم للامة وأن جلائه من بلاد نعمة وسعادة تستحق الأمة عليها كل تهنئه .

إذن فالجوع والعرى والأمية والاستبداد هى الابرات التى لا تفتأ تجرح الجسد البشرى وتؤلمه ومن الواجب إزالة هذه الآفات وتخليص الأمة منها .

ولكن هل هذه الكرب والآلام هى جل آفات البشرية وهى ابرات جسمها

فحسب ؟ واذا قلعت هذه الابرات اطمئنت القلوب ونعمت الأبدان وقرت العيون وصفا العيش وطاب النوم وزالت الهموم والاكدار ورجع كل شيء الى نصابه ؟

لقد كان الخطب يسيرا جدا لو كان ذلك . ولكن الامر مع الاسف ليس كذلك . والواقع لايؤيده .

ان القوت واللباس والعلم والحرية ليست كل شيء فى الحياة وليست دواء كل داء . ان فى جسم الانسانية ابرات سامة غير الابرات المذكورة وهى تجرح قلبه وتذيب حشاشته . خذ مجتمعا قد وصل الى كل مطلوب وقضى كل حاجة فى نفسه فنال الحرية والاستقلال وجمع بين العلم والاموال واجتمع له كل مايمكن من أسباب السعادة المادية والهناء هل تراه هادئاً مطمئنا لايشكو ولا يئن ؟

الأمر ليس كذلك كما تعرف جيدا . بل ربما يكون هذا المجتمع السعيد أشد قلقا فى اضطرابا وأكثر شكوى وعتابا من غيره فما السر فى هذا ؟

سر ذلك أن الانسان قد يظهر فى بطنه الطبيعى بطن كاذب وهو بطن الجشع والشح الذى لايزال صائحا مثل جهنم « هل من مزيد ؟ » انه لايعشق المثل لانه قنطرة الى حاجاته أو شهواته — على الاكثر — بل قد يكون غرامه له كغاية ونهاية هنالك لايطفئ غلته أعظم مقدار من المال وأعظم مجموع من الدارهم والدينار بل يركب رأسه فى شدة غرامه وولوعه بالمال ويرتكب كل محظور ومنكر لانه قد فقد الحاسة الخلقية وحرم الضمير والعقل وجن بالمال جنونا . وأحقر مظاهر هذه النفسية والطبيعة الغريبة السوق السوداء والارتشاء الرخيص وابتزاز الاموال من كل وسيلة وطريق .

اذا درسنا تاريخ العالم الخلقى درسا عميقا وفحصنا فى أسباب الفوضى الاجتماعية والانحلال الخلقى فحصا دقيقا وفكرنا فى رئيس المسائل والمشاكل التى تواجه الحياة القومية والاجتماعية اليوم وجدنا أنها لاترجع الى الضرورات والحاجات الطبعية فى غالب الاحوال بل الى الرغبات الباطلة والحاجات الكاذبة والشهوات المصطنعة فى الغالب وهذه الشهوات التى تغرى صاحبها بالمحظورات والجنايات

وتتولد منها أزمات طريفة ومشاكل معقده فى الحياة المدنية وفى كل نظام حكومى وتحث على الاعتداءات والتدليسات والخيانات والعسف والارتشاء والمقامرة والاكتناز والاحتكار والخداع وتتورط لاجلها أعظم الدول والامم فى الفوضوية واللادستورية .

لو بحث فى الأزمات والمشاكل لاقتنعت بأن تعسر مطالب أغلبية ساحقة وكثرة الجياع العراة فى بلاد ليست هى علة الاضطراب واختلال الحياة الاجتماعية إن هؤلاء الجياع والعراة لم يضيقوا على الناس ولم ينغصوا عيش أحد فى القطر اولئك هم الطاعمون الكاسون الذين لا تشبع أنفسهم بالقناطير من الذهب والفضة ولا تقطع رغباتهم هم الذين ملاؤا الدنيا فسادا واضطرابا . ان قائمة الحوائج الصادقة ليست بطويلة جدا كما يتوهم بعض الناس وكما يغالط أكثرهم ولكن قائمة الحوائج الكاذبة لاحد لها ولا نهاية وهى تستوفى الازدياد والتضخم على مر الايام والليالى وقد تتضخم حتى لا تكفى لرجل واحد ثروة هائلة . ثروة حارة بل ثروة مدينة بأسرها بل وزيادة .

لماذا هذا الغلاء الفاحش واختفاء الأشياء والتضخم النقدى ؟ الأن اغلبية البلاد جائعة عارية ؟ لا بل لأن شهوة المادة قد طغت وتخطت كل حد ، وبلغ غرام الثراء حد الوله والجنون ، وانمحت القناعة من الحياة ، وتسرب الصلف والرياء وحب الجاه والزينة فى جسم المدنية فأحال الحياة الى الشقاء وصير الدنيا دار للعذاب والبلاء فنواجه فى كل منعطف ومنعرج ارتشاءاً مسرفا وسوقا سوداء وأرباحا جائرة .

لكن هل ترتكب هذه المحظورات لأن الجوع أو العرى قد جاوز حده ؟ لا ! إنها أعمال طبقة فضلت أقواتها وملابسها عن حاجاتها ، واجتمع عندها من الكماليات وفضول الحياة وأدوات الزينة والفخار شىء كثير . إنك لاتجد فى هذه السوق السوداء فقيراً لا يملك قوت يومه ولباس جسمه ألا إنها لا فاعيل اصحاب اليسار والاموال الذين قد حيزت لهم الدنيا بأطرافها وحذافيرها ، ثم لا رادع لهم عن الخيانة واختلاس أموال الناس .

إن حاجات الانسان الطبعية الصادقة خطبها يسير وإنه اسهل أن يجد كل إنسان فى بلاد مايشبعه ويكسوه وكل مايحتاج اليه فى حياته ، ولكن هل تستطيع دولة من الدول الكبيره أو شريعة من الشرائع العادلة أن ترضى حفنة من السكان فى حاجاتهم الكاذبة ورغباتهم الباطلة ؟ وهل تقدر أن تشبع بطنا واحداً يشكو الجوع الكاذب والذى لا يشبع وان أكل رزق الناس اجمعين !

فاذا كانت المسألة مسألة الرغبات المختلقة لا الرغبات الصحيحة ، واذا كانت العلة الاشتهاء الصادق فهل تقدر فلسفة اقتصادية اونظام معاشى قد تكفل الطعام واللباس فقط ولا يتعرض للضمير الانسانى ولايغير نفسية المجتمع وطبيعته والذى يشعل الحس المادى ولا يعدله . أن يحمل مجتمعا واحدا على الرضاء والقناعة وهدوء البال ؟ وهل تستطيع كذلك أن يطلق سراح الحياة من الأزمات الراهنة بعد أن أخذت بالخناق وأناخت على المدنية بكلا كلها .

ان الارتشا والسوق السوداء والغلو فى الارباح والجنايات ليست الانتيجة نفسية تدين بعبادة المال والتفانى فى سبيله ، ولن يقف هذا الفساد عند حد اذا لم تتغير هذه النفسية ، بل اذا سد باب فى وجـــه فساد تفتح له عشرة أبواب على مصاريعها ، لان الذهن البشرى له نوافذ وأبواب كثيرة ، كلما سد منه منخر جاش منخر .

ان علة المدنية الحاضر وداءها العضال أنها دست سموم الأثرة والشح وعبادة النفس فى شرايين المجتمع وعروقه ، فاصبح ضميره لا يؤمن الا بالفائدة الشخصية والنفع العاجل فيرتكب أكبر رجل فى هذا المجتمع أشنع جريمة ، فإذا ائتمن خان واذا عاهد غدر واذا حكم جار ، واذا كان وزيرا آثر ذوى قرابته وأفاد نفسه وعشيرته أصدقائه وأضر بأمته وحكومته ، واذا كان موظفا ماطل وتساهل وأبطأ فى العمل حتى يرضخ له شيء من الدريهمات فينشط ويخف للعمل ، واذا كان ممثلا فى مجلس أو عضواً فى هيئة لم يمثل الا شخصه ومصالحه ولم يفكر الا فى فائدته فيوقع لأجله بلاده وشعبه فى خسارة فادحة ، اذا كان تاجراً أقام السوق السوداء على قدم وساق ، وارتكب لزيادة ثروته وتضخيم ماله كل ماتأباه الفضيلة والمروءة

ويمنعه القانون ، فيجوع لأجله ألوف من الرجال ولا يبالى ، وقد يرابى الناس فيلقى على مئات من الفقراء أثقالا من الديون الفادحة ، فيحتاجون الى مليم واحد وقرص واحد ولا يجـدون اليه سبيلا .

وغلب شيطان الأثرة على الدول والأحزاب بعد ان كان مستوليا على الأفراد والرجال . فالأحزاب السياسية ممنعة فى الأثرة والعصبية الحزبية . أما الجمهوريات الأوربية والأمريكية فقد جرت منها الاثرة مجرى الروح ، فتدوس الدويلات الصغيرة بقدمها وتمتهن حريتها وكرامتها وتحرمها متعة الحياة وتجعلها لها مستعمرات وأسواقا لبضائعها وصنائعها ، فحولت هذه الأثرة العالم كله الى متجر او كور حداد ، لاترى فيه الا تعاطيا فى الدرهم والدينار او سحائب من النار والشرار . والأرض كلها الى ساحة حرب واسعة وقـد اسهتان أصحابها فى سبيل منافعهم بالعهود والذمم ؛ واستحلوا اشنع جريمة واكبر جناية ، اذا اقتضت ذلك ظروف واحوال ، فيقتل ألوف من البشر بأمرها ، وتسيطر دولة على دولة أخرى ضعيفة بأسماء مختلفة وعلل واهية وتباع أمة لأمة أخرى بثمن بخس دراهم معدودة كالضأن والغنم ، وتنقل من يد كالرقيق والجمال ، وتقطع بلاد موحدة — يجمع بينها الدين واللغة والحضارة والقومية — قطعا كالثوب ، هذه الأثرة القومية الاوربية التى أهاجت العرب ضد الاتراك — وكلهم مسلمون ، فلما أتموا دورهم فى الحرب الكبرى وكتبوا سطور نصر الحلفا بدمائهم أشاحوا عنهم وتناسوهم واقتسموا بلادهم كالمال السائب او تراث ميت ، حتى اذا أرهقتهم الاحوال واضطرا إلى منح الاستقلال اقاموا فى سوريا الصغيرة اربع دويلات مستقلة ثم زينوا لليهود « الوطن القومى » والهموهم تأسيس دولة مستقلة وقدموا لهم كل مساعدة ، حتى اصبح وطن اليهود امرا واقعا وقامت دولة إسرائيل تصادمت مصالحهم واهواءهم وتضاربت الاثرة بالاثرة ، ومامسأله فلسطين اليوم ، وما تعقدها والتواؤها الا نتيجة اثرة بريطانيا وامريكا وروسيا القومية ونتيجة تنافسها فى استغلال الشعوب ومنابع ثروتها والسيطرة على الشرق الادنى ؛ كذلك حدث فى الهند . فد استغلتها بريطانيا وحلبت ضرعها قرنا ، فلما اخـذت بالجد والجأتها الاحوال الدولية إلى ان تمنح الهند الاستقلال عاملت هذه البلاد التى عاشت عليها

دهراً شر معاملة ، فأشعلتها نارا على أهلها ولم تغادرها حتى جعلتها مذبحا يقتل فيه ابعضهم بعضا ؛ ولم يكن ماصدر من اهل الهند سنة ١٩٤٧ عام الاستقلال الا بالهام لاجنبى وتدبيره الخفى ونتيجة الاثرة والتربية الخلقية التى نشأ عليها ابناء هذه البلاد قرنا كاملا فى ظل الانجليز التى اخذتهم بها السياسة الانجليزية والفلسفة الاوربية والنزعة الجنسية التى جاء بها الاوربيون .

ثم تلك الاثرة الجاهلية قد بعثت فى العالم كله وفى نواحى البلاد كلها طبيعة المطالبة بالحقوق والتهاون بالواجبات ، فقام كل واحد فى المدينة يطلب ماله على غيره ولا يؤدى ماعليه لغيره ونشأ الناس ومردوا على التطفيف ،اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، فأحدثت هذه العقلية الغربية فى جميع الارض نزاعا بين الافراد وعراكا بين الاحزاب وجدالا بين الطبقات وصراعا بين الجماهير والحكومات . وظهرت ثورة عنيفة فى العمال والتجار والفلاحين والموظفين ضد الحكومات ، وعمت الاضرابات والتهديدات والاضطرابات فى المدن . وكل يبالغ فى حقه ويحفى فى المسألة ويتغافل عن واجبه ويخون فى وظيفته ؛ حتى صارت الحياة سلسلة من مطالبات ومصارعات واصبحت الحياة حبلا ممدودا يتجاذبه الفريقان من طرفيه

مهما بالغنا فى ذم هذه الاثرة والتذمر منها وتوجيه اللوم الى هذه المدنية وقادتها ، فان سبب هذه الأثرة الجارفة والمدنية الشقية بأهلها واضح جلى ، فاذا كان الاعتقاد السائد ان لا حياة بعد هذه الحياة الفانية ولا نعيم بعد هذا النعيم الزائل والعهد الراحل ؛ واذا كان ادبنا وفلسفتنا وبيئتنا كلها لاتحدثنا الا عن المادة وحدها وتخضع لاصحابها خضوع الذليل المستكين وتتغنى بمجدهم وتحث على اقتفاء اثرهم وتقليدهم فى الحياة ؛ وتنكر كل حقيقة دينية وخلقية ، واذا ماتت فكرة الحياة بعد الممات واذا تركت القيم الخلقية والحقائق الفاضلة ميدانها للقيم المادية الجسدية ؛ واذا تضخم الجسم والبطن على حساب القلب والضمير حتى وسعا الحياة كلها وحجبا الحقائق الخلقية والمعانى الروحية فكيف لا يصير الرجل فى هذا المحيط ماديا محضا وكيف يؤخر ربح حياته الحاضره وثمراتها للغد الموهوم وكيف يستبقى ويدخر لذته وهناءه للاخرة التى لايؤمن بها ؟ انه اذا لم يؤمن

بالعزيز الجبار العليم الخبير الديان المهيمن الرقيب الذى هو مالك يوم الدين، والذى يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ؛ فكيف يتردد فى استخدام الوسائل التى تهىء له عيشا رغيدا وجاهاً عريضا ومالا ممدودا .

ولما حصرت الفلسفة السياسية المادية حياة الانسان فى القومية والوطنية واستخفت بكل من يعطف على بنى آدم عامة ويواسيهم وكل من يؤمن بالحياة الآخرة الخالدة وكل من يحب الانسانية ولا يتقيد بوطن أو جنس ، أصبح الانسان - اذا ارتفع عن الأثرة الشخصية والمنافع الفردية - لا يفكر الا فى مصالح وطنه ومنافع شعبه ، قد تصل به هذه الوطنية والقومية الى الاحتلال والاستعمار والقسوة والهمجية ، فيرى من واجبه الوطنى والقومى المقدس ومن وفائه لامته وتفانية فى سبيلها أن يؤسس دولة أمة على أنقاض دولة أمة أخرى وعلى أشلائها وهذه هى الوطنية التى حدت بأوربا المتمدنة الى استعمال كل قسوة وحشية فى توسيع مملكاتها وإخضاع الامم والشعوب لدولها وسياستها حتى انتهى بها ذلك إلى استعمال المدمرات والغازات السامة والقاء القنابل الذرية فى الاخير واختراع (Hydrogen Bomb) وأشد منها أيضا .

هذه الأثرة بمعناها الواسع هى آفة المدنية الحاضرة وجائحة زرعها فما دامت هذه الأثرة روح الإجتماعية والسياسية وأساس المدنية والاخلاق ، فلا تفيد التنظيمات والإصلاحات والمشاريع الإقتصادية والعمرانية الجديدة ، ولا تغنى شيئا ، واذا كانت الأثرة متغلغلة فى احشاء المجتمع جارية مجرى الروح هى التى تملى على الناس سياستهم وسلوكهم ، واذا كان الأفراد فى امة يتنافسون فى الشهوات ويتهافتون على اللذات ويتطاولون فى القصور والناطحات للسحاب ويتسابقون فى اقتناء اخر السيارات ويتسابقون فى اسباب الترف والرخاء ومظاهر العظمة والثراء ، واذا كانت قائمة الحاجات المختلفة والرغبات المصطنعة تتضخم كل يوم ، لم يفد تلك الأمة غناها ووسائلها وتنظيمها الإقتصادى ، ولم تكفها مواردها ومنابع ثروتها ، مهما كانت واسعة ضخمة ، ولا يفيدها أن تمطر السماء ذهبا وتلفظ الارض خزائنها من مناجم الذهب ومنابع البترول - فان كل ذلك لا يفى بحاجاتها المختلقة المتعددة ولا فقراءها ولا يكسو عراتها ، فترى فيها على ثروتها الهائلة واموالها الطائلة فوجا من الفقراء لا يجدون من الطعام ما يقيم صلبهم ومن اللباس مايكسو

عورتهم ، اهذا الجوع القاتل والعرى الفاضح الذى ترى مناظره المخجلة على الشوارع العامرة بالقصور المزدحمة بالسيارات لفقر البلاد وضيق مواردها وقلة وسائلها ؟ اذا فمن اين هذه الناطحات للسحاب من القصور والمباريات للربح من السيارات؟ ولماذا هذه الجولات إلى عواصم أوربا وأمريكا ؟ لا والله ليس ذلك إلا لهذه الأثرة — قاتلها الله — التى حالت بين الفقراء وبين حظهم من العيش وحقهم من الحياة والتى ابتلعت موارد البلاد وأموالها فلم تترك للفقراء ولا للبلاد شيئا .

لقد أصبح المجتمع الانسانى اليوم جسما متورما يستسمنه الجاهل ، وما هو بسمين ، إنما هو ورم غير طبيعى ، فقد بلغ شأوا بعيدا فى الزخارف والكماليات وضخامة المبنى

وقلت الأمية وشاع العلم فى كثير من الأقطار ، وتساوى الناس فى المعيشة وأسبابها فى بعض الاقطار أيضا — كما يقولون — ولكن الواقع أن هذه الدوحة التى تراها قائمة — دوحة المدنية والمجتمع الانسانى — قد أصابتها دودة أكلت كبدها ونخرتها ، فهى متآكلة جوفاء ، وهذه الدودة الخبيثة هى الأثرة التى تزين للانسان الظلم وتحمله على الاعتداء ، فاذا بقيت هذه الدودة تأكل كبد المجتمع وتنخر جسمه حبطت الجهود الاصلاحية ، وضاعت المشروعات الاقتصادية ، وما دامت هذه الدودة تفعل فعلها فلا تنفع الأمة « الاشتراكية » و « الشيوعية » ولا تؤثر فى الحياة تأثيرا كبيرا ، لان أمة نشأت على الاثرة وحب المال المفرط وحب الحياة الزائد ، لا تمتنع من الظلم والاعتداء لاجل تنظيمات اقتصادية وعقوبات مدنيه ، فان هنا ميادين غير ميدان الاقتصاد يستطيع المرء فيها أن يظلم أخاه ويغتصب حقه وإذا لم يستطيع ذلك فانه يقدر أن يؤذيه ويعاكسه على الأقل ؛ فلا طريق الى العدل والسلام والهناء الكامل الا أن تقتلع جرثومة الأثرة والشح والاعتداء من قلوب الناس وعقولهم ، وذلك لا يقدر عليه الا الدين المسيطر على الروح والقلب ، الدين الذى يحث على الاقتصاد فى المعيشة والزهد فى الدنيا ، ويمنع الانسان من الاسترسال فى الآمال والأمانى والانهماك فى اللذات والشهوات والاسراف فى الاكل

والشرب ، ويحض على الايثار على النفس مع الخصاصة وانفاق العفو من المال ويحض على طعام المسكين ، والحدب على اليتيم ، وينعى على الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، ويأكلون التراث أكلا لما ، ويحبون المال حبا جما ، ذلك هو الدين الكامل العادل الذى ينقذ الإنسانية من كل بلاء ، ويقيم عوجها ، ويرتق فتقها ، ويأسو جراحها .

ان الشعوب أو البلاد التى استقلت فى آسيا فى الزمن الاخير ، لاتزال معرضه عن حقيقة ناصعة ، وهى أن رفاهة البلاد وسعادة الشعب ليست من كثرة الوسائل والآلات واكتشاف موارد المال ومنابع الثروة وازدهار الصناعة والزراعة وكثرة المصانع وتقليد أوربا وأمريكا فى تنظيماتها وان كان لابد من ذلك ، ولكن الرفاهة الحقيقية فى صحة المقاصد والغايات وحسن استعمال الوسائل والآلات وفى اعتدال الحياة وقلة الحاجات وحب العدل والمواسات . ولن يحصل هذا من طريق الآلات والماكينات ومن طريق التنظيمات الاقتصادية والنظم السياسية ، ولكن من طريق التربية الدينية وبتأثير الدين الصحيح ، والتعليم الصحيح . ولئن كانت الوسائل والآلات والتنظيمات ضامنة برفاهة البلاد وسعادة الامة وهدوء بالها لكانت أوربا وأمريكا وروسيا أرفه بلاد الله ، وأطيبها عيشا وأقلها كدرا وأنعمها بالا ، وأرضاها بالحياة ، وأبعدها من القلق والاضطراب ، والشكوى والعتاب ، ولكانت جنة فى الارض لاخوف فيها ولا حزن ، ولكن الامر بالعكس ، فمشاكل هذه البلاد وأزماتها وصراع الاحزاب والنزعات بينها ، وتذمر الناس من حياتهم وعدم رضاهم عن مدنيتهم ، وبحثهم عن هدوء البال وسكينة القلب حتى فى الشرق وأديانه أمر معلوم ،

إنا لاننكر الفضل للايدى التى تحاول إراحة البشرية المعذبة واسعافها بازالة تلك الابرات عن جسمها : ولكن لاسبيل إلى الطمأنينة الدائمة والسكينة التامة إلا بقلع ابرات العيون ، ان الحصول على الحرية والاستقلال عمل جليل وهدف سام جدا ، والجهاد فى سبيل مكافحة الفقر والجوع والعرى والامية والجهل . والغاء المظالم والاعتداءات الاقتصادية والاجتماعية ، والحصول على وسائل الحياة حسنات

لاتنسى . وإياد بيضاء لاتنكر . ولكن الانسانية أوسع من هذا . وان الانسان أكثر من المعدة والبطن والجسد والعقل . ان فى جسده مضغة لو صلحت صلح الجسد كله ولو فسدت فسد الجسد كله . ألا وهى القلب . فالمهم الاهم هو صلاحه وهدوءه واعتداله وحياته . فهل فكر المفكرون فى هذا ؟ وهل وجدوا اليه سبيلا؟

قد تسابقت أيدى الانسانية الرفيقة لقلع ابرات الجسد . وقد عنيت بابرات البطن والمعدة فاقتلعتها وأراحت الانسانية منها . ولكنها ما فطنت لابرات العيون التى هى أصل البلاء وبذرة الشقاء . والانسانية تئن انين الثكلى وتهتف بابنائها وانصارها وتنادى : الى يا أبنائى البررة . اسعفونى وخلصونى من العذاب الذى أتجرعه ولا أكاد اسيغه . ويأتينى الموت من كل مكان . وما أنا بميت . وأريحونى من وجع الفؤاد وألم العين الذى شرد نومى واقلق بالى . وأمسحو مابى من علة حتى أعيش قرير العين ناعم البال مطمئنا .

فهل من مجيب ؟! .

(٩)

دعوتان مُنافِستان

ليست « الجاهلية » محدودة موقوتة بعصر انقضى، فذلك عرف محدود، بل النزاع والصراع موصولان بين الجاهلية والاسلام . . . ولقد انتصر الاسلام انتصاره الرائع يوم استجاب للاسلام أهلوه، واعتز بالله و به متبعوه، وحرص على فرائضه وحدوده معتنقوه، ثم عاد المسلمون الأواخر القهقرى، فرزئوا في جهادهم وفي فضائلهم حتى عادت فيهم الجاهلية جذعة حمقاء . . . وليتهم كانوا فيها اعلاما او رءوسا ـ وفي الشر خيار كما يقولون ـ بل هم فوق هذا عبيد او اذناب، ولن يعزوا في الكون ويتخلصوا من الهوان إلا يوم يكفرون بكل طاغوت ويجحدون كل شيطان، ويؤمنون بالله الواحد القهار) ! . . .

الشرباصي

دعوتان متنافستان

لم تزل فى الدنيا منذ وجدت دعوتان متنافستان متصارعتان دعوة تدعو إلى إتباع النفس وتحكيمها وإلى حرية الانسان المطلقة التى لاتقف عند حد (الا إذا اضطرت إلى ذلك) وان كان فى غصون هذه الحرية وأثنائها مآت وآلاف من انواع الرق والعبودية ، ودعوة تقول ان الانسان عبدالله مكلف ومسئول أمامه وتدعو الى إتباع الوحى من الله وشرائع الأنبياء .

الدعوة الأولى هى « الجاهلية » فى مصطلح الاسلام الواسع والدعوة الثانية هى دعوة الاسلام نفسه واقتسمت هاتان الدعوتان أمم العالم وأجياله ، ولم تزل تتداول قيادتهما وتمثيلهما من حين الى حين ، وليس تاريخ الأديان والعقل والأخلاق إلا حكاية هذا الصراع المستمر والنزاع الدائم وذلك أكبر صراع وأوسعه شهده العالم فى عمره الطويل .

ومنذ ثلاثة عشر قرنا ونصف اختار الله لقيادة الدعوة الثانية (الاسلام) أتباع محمد ﷺ وكتب لهم الامامة فى ذلك الى يوم القيامة .

كذلك لم تزل تمثل الدعوة الجاهلية وترأسها أمم وحضارات جاهلية فى عصورها ودوائرها ، حتى قضى ربك ان تتولى زعامتها وتحمل رايتها أمم أوربا النصرانية قبل نحو قرنين ، وإنما رشحها لهذا المنصب وجعلها حاملة لرسالة الجاهلية فى العالم مجاهدة فى سبيلها سوء تمثيل النصرانية المحرفة للدين المطلق ورهبانيتها وعجزها عن حل القضايا الانسانية والمعضلات البشرية ، ثم سوء تمثيل علمائها وكهنتها وقسوسها للنصرانية نفسها وبما حالوا بين أمتهم وبين الرقى والتقدم وبما أذاقوا العلماء الاحرار والمكتشفين من أنواع العذاب التى تقشعر لها الجلود وتتفطر منها مرارة الانسان مما حفظه لنا تواريخ الصراع بين الدين والمدنية

والدين والعقل والدين والعلم فى أوربا (١) أضف الى ذلك كله تهور الثائرين على النظام القديم وطيشهم فكان عاقبة ذلك أن أصبحت أمم أوربا وهى المتحفزة للنهوض الطامحة إلى الرقى تبغض الدين مطلقا وتتحرر من كل نظام قديم وتعادى كل دعوة دينية خلقية وترى فيها حجر عثرة فى سبيلها وفى أصحابها عدوا لدودا للرقى الانسانى وعلى كل فتحولت أمم أوربا جاهلية مادية محضة ، وكان هذا التحول من اتعس الحوداث التى وقعت فى التاريخ والذى قد جر على الانسانية شقاءاً طويلا وويلا عظيما ، ولكنه كان واقعا لا محالة لاسباب طبعية عقليه .

وتقدمت أمم أوربا الفتية المتحمسة لغزو العالم وفتحه وقد أخذت له أهبته وأعدت له عدته فكان بحكم الطبيعة أن تصادم ممثلى الدعوة الثانية المضادة لها وهم المستولون على أجمل رقع العالم المتمدن المعمور وعلى أهم بقاع الارض سياسيا وجغرافيا وأخصبها واثراها اقتصاديا وكان بديهيا أن يقع أول صراع واكبره بين هاتين الفئتين فكان ذلك !

كان ذلك والمسلمون منذ أمد بعيد قد فقدوا روح الرسالة التى كانوا يحملونها والتى قد أصبحوا بقوتها سيلا جارفا جبارا لايقاومه الحشائش ولا تقف فى وجهه الصخور . وقوة المسلمين وروحهم دائما من الرسالة والدعوة . فاضحوا لايحملون رسالة الاسلام الى العالم ولا يدعوق دعوة دينية تنفخ فيهم الحماسة والفتوة ويأتون لها بخوارق ومعجزات ، وتفتح لهم هذه الرسالة قلوبا وعقولا وتسخر لهم ممالك ودولا ، وأصبحوا جيلا من الناس كسائر الاجيال يرى مايحدث فى العالم من خير وشر ومايسود فيه من حق وباطل هادئا مطمئنا كمتفرج أو كعاجز ليس له من الامر شيء .

وفقدوا الايمان والحماسة الدينية ففقدوا القلوب التى كانوا يلقون بها عدوهم وسلاحهم الذى كانوا يقارعون به فيهزمون أضعافهم فى العدد والعدد واصبحوا

---

(١) ويكفي للقارىء ان يجيل نظرة فى كتاب (الصراع بين الدين والحكمة) لدراير الاميركى ، المطبوع قديما حتى يعلم مبلغ قسوة هؤلاء الكهنة وهمجيتهم ، ويفهم سر الثورة على الدين فى اوربا .

كسائر الناس لايمتازون بمزيد قوة ولا بزائد يقين يألمون كما يألمون ولا يرجون من الله ماكانوا يرجون !

وفقدوا الأخلاق والفضائل التى كانت لهم قوة روحية وسلاحا ماضيا فى معترك الحياة دانت بها لهم الجبابرة ولانت بها صخور القلوب واستبدلوا بها عيوبا وادواءا خلقية واجتماعية اخذوها من الامم الجاهلية المنحطة التى عاشروها وسرت فيهم ايام ترفهم وانحطاطهم الخلقى والاجتماعى ، وكانت كدابة الارض تأكل منشئاتهم وتنخر الدعائم التى قام عليها بناءهم .

ونضب معين علومهم وجمدت قرائحهم وعقولهم وحرموا الأجتهاد والتفكير وقوة الاكتشاف والابداع ، ومنى علمائهم بجمود عقلى وركود علمى لايزيدون فى ثروة العلم ولا يفتحون للعقل أبوابا ومنافذ جديدة ولاينظرون فى علوم الطبيعة والكون بينما كانت أوربا تسخر لمصالحها قوى الطبيعة ويكشف علماؤها عن أسرار الكون ويتخذ عاملوها نفقا فى الارض وسلما فى السماء .

أما الامراء والملوك المسلمون فقد تركوا الجهاد فى سبيل الله منذ قرون واشتغلوا عنه بحروب بغضاء ومنافسة ، وشهوات ومطامع حتى دهم الاسلام الزحف الصليبى فلم يقم له إلا صلاح الدين الايوبى وبعض الافراد المتصلين به . ومرت كارثة الاندلس وكأن لم يكن شىء وزحف التتار والمغول ـ وذلك الجراد المنتشر ـ فنهكو قوى المسلمين ، وزادوهم وهنا على وهن .

هذه هى العوامل التى ساعدت الاوربيين فى فتحهم وانتصرت بهم الجاهلية على الاسلام فكان اكبر انتصار نالته الجاهلية عل الاسلام منذ زمن طويل ولو تكلمت لقالت اليوم انتصفت من عدوى وأخذت ثار الامم التى فتحها والدول التى محاها والحضارات التى طمسها ومن اليوم أزدهر فى بلاده وأخصب فى نجاده ووهاده وأجرى مجراى لا يسد تيارى شىء .

لو قالت لصدقت لأن المسلمين على علاتهم كانوا امناء لرسالة الانبياء حملة لمصابيح شرائعهم حرزا للدين فى الدنيا وردءا للأخلاق والفضيلة على كل حال وكانوا اعظم سد فى وجه الجاهلية ويتحولون اكبر خطر عليها فى كل وقت .

كانت رزية المسلمين فى هذه الهزيمة عظيمة وخطبهم فادحا جدا فقد خسروا بلادهم التى كانت تدر لبنا وعسلا وخسروا جميع دولهم تقريبا ، ومنوا بنوعين من العبودية السياسية والعقلية ، وحيث أفلتوا من العبودية المـادية لم يفلتوا من العبودية العلمية والخلقية .

ورزؤا فى أخلاقهم التى أورثتهم اياها تعاليم الأنبياء والمحاسن التى حافظوا عليها طوال هذه القرون من صدق وامانة وشجاعة ووفاء وعفة وطهارة وكرم وتواضع وتقوى الله فى السر والعلانية ومراقبة حدوده الى غير ذلك مما يمتاز به أتباع الشرائع السماوية من أهل الجاهلية وتسلطت عليهم بتأثير الأمم الغربية العيوب الخلقية والمخازى البشرية التى ورثتها أوربا من روما واليونان الوثنيتين ومن قرونها المظلمة ومن جاهليتها كالنفاق والرياء والغدر بالعهود اذا دعت إلى ذلك مصلحة والجشع المادى والأيمان بالقوه وحدها والاحترام للمال والثروة وحدها وتقديم المصالح والمنافع على الأخلاق والفضائل .

وما كانت رزية الإنسانية فى هذا الأنتقال بهينة فتزلزلت مبانى الأخـلاق والفضيلة فى كل صقع وقطر ، وحدثت ثورة على كل نظام قديم وان كان عادلا وحسنا ، وعمت الفوضى فى البيوتات والأسر وتغير الولد للوالد وعقه وفركت المرأة بعلها وثارت عليه ، وأنحلت عقد الأرحام ولم يعد الصغير يوقر الكبير ولم يعد الكبير يرحم الصغير ، وتعوضت القلوب من الألفة والمحبة الجفاء والبغضاء وكثر التنافس فى الحيوة الدنيا وفى الرقى المادى ، وفى أسباب الجاه والثروة وتولدت من ذلك شرور وآفات كدرت صفو الحياة وأماتت القلب والروح إلى غير ذلك من الظواهر التى تشكو منها كل ديانة وكل حضارة شرقية بها وحزنها ومما يشترك فيه المسلمون وغيرهم من الشرقيين .

ثم ان هذه الأمم الجاهلية قد أصبحت تتحكم فى أموال الناس ونفوسهم وأرزاقهم وأصبحت تملك السلم والحرب وأصبح العالم فى حضانتها كولد يتيم أوشاب سفيه لا يملك من أمره شيئا فتارة تسوقه إلى ساحة القتال وطورا تملى عليه الصلح وليس له فى صلح أو حرب يد مرفوعة أو كلمة مسموعة .

ماذا عسى أن يكون أثر هذه الهزيمة والرزية العامة فى نفوس المسلمين وفى نفوس بنى آدم عامة ؟ أما الناس عامة فلكل انسان أن يجيب عنه وسيجيبون عنه أما المسلمون — وهم أولى بأن يوجه هذا السؤال اليهم لأن منهم انتقل هذا الملك الواسع والأمر والنهى إلى الأوربيين ولأن دينهم يقتضى أن يكون ظاهرا على كل دين وأن يكونوا هم الأسوة وحدهم للعالم — فسيقول كل مسلم لم يمت قلبه ان من الطبيعى أن تنطوى صدور المسلمين على احن وأحقاد للجاهلية وأن ينظروا إلى كل من يمثلها فى كل مكان كعدو غاضب وغريم منافس وان طبيعة رسالتهم ودعوتهم فى العالم تقتضى بداهة أن تعزل الأمم الجاهلية من قيادة العالم والتأثير فى عقول الناس وتوجيه أفكارهم وأن تمنع من تمثيل الجاهلية فى العالم وأن ينزع منها سلطانها حتى لا تكون فى دعوتها فتنة لمفتون ، وحتى لا تنافس الدعوة الى الله دعوة ولا ينازع فى الدنيا عاملا يتجاذبان النفوس والعقول إلى جهتين مختلفين (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) .

ويعلم كل ذى بصيرة بل كل ذى بصر أن مجرد سيادة هذه الأمم واستعلائها السياسى والمادى دعاية عظيمة لدينها ، وحضارتها ، ومبادئها ، ومناهج فكرها ، وأخلاقها لا يقاومها منطق ولا أستدلال ولا حجة ولا برهان ، ولا فلسفة ولا أخلاق ، ولا تنجع ضدها دعوة الأديان وانها قد أصبحت بزخارفها مغناطيسا للقلوب تنجذب اليها كما ينجذب الحديد .

وهذه هى الحقيقة التى ذكرها موسى عليه الصلاة والسلام فيما حكى القرآن عنه فى دعائه الذى دعا به فى مصر على عهد فرعون وهى حقيقة فى كل عصر ومصر

« ربنا انك آتيت فرعون وملائه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم » .

فماذا كان المنتظر من المسلمين — وهم حاملوا رسالة الإسلام ؟ كان المنتظر منهم ن يروا فى أوربا وأمريكا زعيما للجاهلية . الذى تولى كبرها وحمل رايتها فى الآفاق ، وكان الواجب أن تكون هذه المسئلة هى أم المسائل وكبرها فى نظرهم وأن تشغل ذهنهم وتستغرق سعيهم ، وكان الواجب أن يعدوا أنفسهم فى كل ناحية من نواحى

العالم ممثلين لدعوة الاسلام ضد هذا الدعوة الجاهلية ، وأن لا يتخذوا موقفا مهما كان أقتضاء المصالح الوطنية والسياسية والمالية لا يتفق وممثلى الاسلام وحاملى رسالته وأن لا ياتوا بشيء تتغذى به الحركة الجاهلية فى العالم ، وأن لا يظهر منهم شيء ينم عن ركونهم إلى هذا النظام الجاهلى الذى بسطته هذه الأمم فى العالم وتريد أن تبسطه ويظهر به تعاونهم على هذا الاثم والعدوان الذى لا عدوان أكبر منه .

ولكن مما يبعث الاسف العميق والعجب الشديد فى النفوس « عجبا يميت القلب ويشغل الفهم ويكثر الاحزان » كما قال على ابن أبى طالب رضى الله عنه فى خطبة له - ان المسلمين - عامتهم لم يدركوا هذه الحقيقة مع وضوحها وانجلائها ، وذهلوا عن موقفهم الصحيح فى العالم ، ونسوا وجهلوا أنهم والأمم الاوربيه الجاهلية دعاة لنظامين للحياة متضادين ، ولحضارتين متناقضتين وأنهم واياها ككفتى ميزان كلمات رجحت واحدة طاشت الآخرى .

وأصبح المسلمون أخيرا لجهلهم للدين وما يقتضى من حب وبغض وبتأثير الدعاية يرون إلى الجاهلية الاوربية كالحليف الوحيد للاسلام وأنهم يقرعون بين أممها ودولها أيها أقرب اليهم وأنفع لمصالحهم وأغراضهم السياسية والمالية ويجهلون أنها مهما أختلفت فى نظمها السياسية وفى ادارتها الداخلية أو سياستها الخارجية ومهما تعادت وتباغضت فيما بينها فانها أخوات شقيقات من اب واحد وأم واحدة وانها لاتختلف فى المبادى الأولية وفى فلسفتها التى يسميها الاسلام الجاهلية ، وغاب عن عقلاء المسلمين والمتعلمين منهم بل وقادتهم وزعمائهم فضلا عن العامة أنه مادامت هذه الأمم تتمتع بالغلبة السياسية وما دامت لها سيطرة على العالم فهى المثل الكامل والقدوة العامل فى الاخلاق والسيرة والعلم والمدنية والفضائل والرذائل وما دامت كلمتها عاليا فلا تزدهر للدين دعوة ولا تعلو له كلمة ولا يسود فى العالم الأخلاق الفاضلة ولا تكون لها قيمة ففى مصلحة الاسلام وفى مصلحة الانسانية أن تعزل بأسرها ، عن قيادة العالم ولما كان المسلمون هم المسئولون وحدهم عن صلاح العالم وفساده ووظيفتهم الحسبة على الناس وهم القوامون بالقسط شهداء لله وهم المراقبون لسير العالم فلهم أن يجتهدوا فى

ذلك أكثر من كل شعب وأمة ، بل يجب عليهم ان يكونوا طليعة وأن يكونوا اماماً فى الحركة ضد الجاهلية وأئمها ، بل يجب أن تبدأ منهم الدعوة واليهم تعود .

ولكن أجل نظرك فى العالم الأسلامى كله وانظر فى شعوبه وامه ودوله — ان كانت فيه دول تملك أمرها — وفى جميع طبقات المسلمين هل ترى شيئاً تستدل به على أن هذه الامة المنبثة فى أرجاء الارض صاحبة رسالة فى العالم وصاحبة دين وعقيدة وأنها تنكر مما وقع وواقع شيئا وتحمل فى صدرها حفيظة ضد الجاهلية وأهلها وتريد أن ترفع للاسلام راية وتجتهد لأعلاء كلمة الله

كلا ! بل ترى أمة هادئة مطمئنة راضية بكل مايقع فى العالم اليوم ، سليمة الصدر ، قريرة العين ، ناعمة البال تتعاون مع الجاهلية وأئمها وتتحالف ، وتقدم لها كل معونة تقدر عليها لمثل هذا يذوب القلب من كمد . ان كان فى القلب إسلام وإيمان .

أجل ان كان فى القلب إسلام وايمان لما ارتضى مسلم بهذا الخزى ولكن كل ذلك يرجع إلى كون الرجل مسلما ، يحب لله ويبغض لله ، ويوالى فى الله ويعادى فى الله ولذلك ذكره القرآن شرطا فى قوله .

(يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون اليهم بالمودة ، وانا اعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . ان يثقفوكم يكونوا لكم اعداءاً ويبسطوا اليكم ايديهم والسنتهم بالمودة وودوا لو تكفرون .

ثم ضرب لذلك مثلا بابراهيم وأصحابه .

قد كانت لكم اسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالو لقومهم إنا برءؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء إبداً حتى تؤمنوا بالله وحده (الممتحنة)

ليلاحظ القارىء العربى النكتة فى قول ابراهيم وأصحابه « كفرنا بكم »

وبلاغة الكلمة وسعتها ، فلم يقولوا كفرنا بدينكم كأنهم قد اصبحوا صـورة وتمثالا للكفر والجاهلية جامعين لمعانيها واشكالها ومظاهرها ، ولان حياتهم كلها وما يتصل بها من علوم وفلسفة ، وحضارة وثقافة قد سرى فيها روح الكفر والجهل وذلك ينطبق على كل امة جاهليه حرمت من هـدى الانبياء وعلومهم وبنت حياتها وعلومها ومدنيتها على دلالة الحواس أو على القياس او التجارب ، فعمل الانكار لجميع هذا وكأنهم أعلنوا بهـذا اللفظ ، أنهم ثائرون على هـذا النظام الجاهلى برمته وحذافيره جاحدون به كافرون بأصحابه لا يؤمنون لهم بفضل ولا يخضعون لهم بشىء !

ثم لينظر القارىء وليعتبر كيف ان المسلمين وهم أتباع دين واصحاب يقين قد آمنوا بزعماء الجاهلية وأئمة الكفر ولو لم يؤمنوا بدينهم ولكنهم آمنو بهم بأوسع معانى الكلمة وقد اشترط الله للايمان به الكفر بالطاغوت وقدمه عليه وقال فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى .)

أما إذ أصبح المسلمون لا يعنيهم أمر الدين والأخلاق ولا يهمهم مصير الانسانية ومستقبل العالم ولا تهمهم إلا المصـالح السياسية والفوائد المادية الحاضرة التى تعود على بلادهم أو شعبهم وبالاصح على اشخاصهم فحبلهم على اغاربهم وأمرهم بيدهم ولكن ليعلموا أخيرا أن سفينة الجاهليه التى اختاروها لسفرهم قد احيط بها وأن الواحها قد تآكلت ونخرت منذ زمن وان ربابينها قد أختلفوا فى ما بينهم فى تسئيرها وقيادتها وليعلموا أن هـذه السفينة اذا غربت فأنها ستغرق بجميع ركابها وكل من وصلوا اسبابهم بأسبابها ولا عاصم من أمر الله الا من رحم وقد قال

(ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من اولياء ثم لا تنصرون)

(١٠)

مصرع الجاهلية

« هذا غول الجاهلية ينهش المجتمع من جديد والناس — عامة وأوساطا وعظماء — فى غيهم لاهون، او فى شهواتهم غارقون ، والكلام كثير ، والعمل قليل ، وكأنما فقدت الألفاظ دلالاتها أو تأثيراتها فأصبح الدين كتاريخ يدرس او يعرض ولكنه لاينفذ .

وما أشد حيرة الداعية إلى الله حين يحتال للقضاء على غول الجاهلية الرهيب الباغى . . . وكيف والغول فى يده اسلحة الشهوة والجاه والشهرة والمال والمدنية والالات والمخترعات ، وما اعجب ولذ وطاب ، من الثياب والطعام والشراب ! . . .

فهل من شجاع مقدام يقبل بسلاحه الروحى الجبار ليقصم ظهر ذلك الغيل الرهيب؟ . . . أعقمتم يامسلمة اليوم عن إخراج مثل ذلك الشجاع العملاق »

الشرباصى

مصرع الجاهلية

من الأساطير التى سمعناها فى الصغر وبقيت فى غضون الذاكرة وبعض ثناياها ان رجلا اعتدى عليه عفريت من الجن بمثل ماكان يعتدى به الجن على البشر فبرز الرجل بكل ماأوتى من حول وطول وبكل ماقدر عليه من سلاح ومشقة ليقتله .

هجم الرجل على العفريت بكل سلاح ماض وسيف باتر وسهم مصيب ونثر كنانته ، ولم يدع فى القوس منزعاً ولكنه لم ينكأ عدوه ولم يصب منه مقتلا .

ومازال الرجل يعيد الكرة بعد الكرة ويجرب سلاحاً بعد سلاح والعفريت ساخر منه غير محتفل به كأن من نفسه على أمان ومن سهام الرجل وهجماته فى حصن حصين .

حار الرجل فى أمره وأعياه أمر العفريت وكاد يقطع من قتله الرجاء اذ أخبره أحد العقلاء أن روح هذا العفريت فى حوصلة ببغاء وهذه الببغاء فى قفص من حديد وهذا القفص معلق فى غصن شجره وهذه الشجرة فى غابة كثيفة يسكنها سباع ضارية وحيات فتاكه وعقارب سامة ودونها خرط القتاد وحولها شم الجبال

ومازال الرجل يطلع جبلا بعد جبل ويقطع واديا بعد واد ويقتل وحشيا بعد وحشى حتى خلص الى هذا القفص وخنق هذه الببغاء ولم يكد يقتلها حتى حدثت رجة عظيمة دارت بها الارض الفضاء وأظلمت بها آفاق السماء وصاح العفريت صيحته الاخيرة وكان جثة هامدة لاحراك بها وهكذا قتل الرجل عدوه بعد مالقى من عرف القرن .

لعلك سمعت هذه الاسطورة من عجوز فى بيت تحكيها لاحفادها أو أسباطها فمررت بها مستهزئا وقلت .

حديث خرافة ياام عمرو

نعم انها لحديث خرافة وأسطورة من أساطير الاولين . ولكنها تفيدنا بأن

كل حى له مقتل ووريد ولا يؤثر فيه عدو حتى يصيبه فى مقتله ويقطع منه الوريد وإن دون ذلك المقتل وحول هذا الوريد حواجز وحصونا .

قد تسلط على الامة الإسلامية عفريت من الحياة الجاهلية واعتدى عليها بصنوف من الجنال وضروب من الاذى والوبال ظهرت فى كثير من أخلاقها وأفعالها كاستخفاف بأحكام الشرع وتجرؤ على المعاصى ووقوع فى محارم الله واستعباد لعباد الله وامعان فى الشهوات واسراف فى سبيل المتع واللذات وتهافت على الحشائش والزوائل وفرار عن مكارم الاخلاق والفضائل « وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا » ،

والناس طبقات عامة ، وأوساط ، والعظماء .

فأما العامة فمساكين تدور حولهم رحى الحياة بسرعة لا يرفعون فيها إلى الدين والسعادة الأخروية والإستعداد للموت رأسا وإنما همهم أن يؤدوا ضرائبهم ويجمعوا الإيام فراغهم ويكسبوا قوت يومهم ويكسوا عيالهم فهم يكدحو فى الحياة كدح الحمير والثيران لا يتعبون إلا للراحة الموهومة ولا يستريحون إلا للتعب الواقع فهم من البيت إلى الدكان ومن الفراش إلى المصنع أو السوق أو الإدارة ، ومن نصب إلى نصب ومن هم إلى هم لا تنتهى همومهم ولا تنقضى متاعبهم حتى إذا جائتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها .

وأما الاوساط فهم أسوأ منهم حالا و أكدر منهم بالا عذبهم الله بالحرص والجشع ينظرون دائما إلى من فوقهم ولا ينظرون أبدا إلى من دونهم فهم فى هم متواصل وأحزان متسلسلة وشقاء مستمر وتذمر جار وشكوى قائمة وأنين باق يجرون فى رهان لا ينهى ويسابقون جيادا لا تكل ولا تسبق ، لايزال قصب السبق بعيدا كلما انتهوا إلى غايته رأوا غاية أخرى فجروا ورائها وهى تبتعد عنهم كما يبتعد الافق من الطفل الذى يحاول مسكه وشعاع الشمس الذى تجتهد لقبضه وهكذا يتفلت منهم « المثل الاعلى » فى الغنى والثروة والرخاء والجاه فيموت الواحد منهم كئيبا منكرا لم يستعد ليوم الجد ولم يأخذ لنفسه عدتها ويأتيه الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فاصدق وأكن من الصالحين .

وأما العظماء - من الملوك وأبناء الملوك والامراء فانهم يريدون أن يلتهموا الدنيا طولا وعرضا وينتهبوا المسرات جرما وركضا لا يشفى علتهم ولا يروى غليلهم وهم من دقائق الراحة إلى دقائق ومن بدائع الى بدائع ومن ابتكار إلى ابتكار ومن لذيذ فى الطعام والشراب إلى الذ ومن حديث من مستحدثات المراكب والقصور والازياء إلى أحدث لا تكفيهم فى ذلك موارد قطر بأسره ومنابع ثروة أمة بطولها حتى يلجأوا إلى استقراض وتجارات وضرائب جديدة وأتاوات ولا يبالون فى سبيل ذلك أن يرهنوا بأيدى عدوهم رداء الزهراء أوكساء أبى ذر، أوشملة أويس او مصحف عثمان او صمصامة عمرو بن معدى او رمح الزبير او بردة كعب بن زهير ويهبوا صبوحا او غبوقا .

وقد هجم على عفريت الجاهلية جيش من المصلحين فصاحوا به من كل جانب ورموه عن قوس واحدة ولكن لم ينكأوا عدوهم ولم يصيبوا منه مقتلا .

ألقى الوعاظ والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر دروسا فى الاخلاق واحاديث فى الترغيب والترهيب ، طمعوا الناس فى الجنة وحذروهم من النار بشروهم بالوعد وخوفوهم من الوعيد فسمع الناس كل ذلك فى هدوء ولم يحرك منهم ساكنا ولم يغير منهم خلقا .

الف المؤلفون كتبا جاؤا منها بكل رقيق مرقق اوردوا فيها حكايات زهد للعمرين وتقشف على بن ابى طالب - ومواغظ الحسن البصرى ، وكلمات ذى النون المصرى ، ورقائق الفضيل بن عياض وزهديات ابى العتاهية وفصاحة الواعظ ابن الجوزى ، وتحليل الامام الغزالى .

قوارع تبرى العظم من كلهم مضى

فقام الاغنياء والامراء وابناء الملوك فاقتنوا هذه الكتب وزينوا لها مكاتبهم وتحدثوا عنها إلى ندمائهم وزائريهم فى لباقة ورشاقة ولكن لم تنفذ سهامها من العيون الى القلوب ولم تجاوز احاديثها تراقيهم .

قام الخطباء البارعون فألقوا خطبا اسمعت الصم واستنزلت العصم فسمعها

هؤلاء وأثنوا على براعتهم وفصاحتهم ومضوا لسبيلهم لم يبكوا على زلة ولم يقلعوا عن سيئة ولم يحدثوا الله عهداً .

لقد كان والله اقل من هذا يهز القلوب فى الجوانح ويستفرغ الدموع من الشؤن ويرجف القصور ويقلب عروش الملوك ، ويجعل من ابناء السلاطين والأمراء مثل ابن ادهم وشقيق البلخى ؛ يسمع احدهم - وهو خارج فى قفص او رائح الى لهو قارئا يقرأ « الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم بذكر الله وما نزل من الحق » الآية فيقول والله لقد آن ، والله لقد آن ويرمى آلات اللهو ويخرج من ابهة الملوك وحشمة السلاطين الى تبذل الفقراء وتقشف الزهاد ،

فهل فقدت الالفاظ على تعاقب الايام معانيها ، ام اعتلت الاذواق ام استعجمت اللغات ، ام ماذا ؟

ان شيئا من ذلك لم يقع ولكن نفسية الإنسان تغيرت تغيرا عظيما .

كان امر الدين فى الزمان الماضى - برغم جميع ادوائه وعيوبه الخلقية والاجتماعية - جداً غير هزل ، وكان امر الدين يعنى كل واحد ويهمه كما تهم الحقائق والامور الواقعة ، وكان دون فى بعض الاحيان حجب من الترف والطبع والرسم وسوء المعرفة وقله العلم فاذا ارتفعت هذه الحجب وتطرقت دعوة الدين الى القلوب لم يحل دون التوق واصلاح الحال شيء ، اما الآن فقد اصبح الدين موضوعاً تاريخيا اوحديثا علميا بحتا ، وأصبح الحديث عنه فى المجتمع العصرى كالحديث عن كوكب المريخ وعجائبه وعن القطب الشمالى واخباره لا يعود على المتحدث والمستمعين بضرر او نفع ولا يطالبهم بعمل او ترك ولا يمسهم فى صميم مسائلهم ولا يعنى الانسان ولا يهمه فى حياته الا بمقدار ماينظرف بمعرفته ودراسته فى بعض المجالس او مايحادث به اهله عند الحاجة او مايجلب به نفعا ويدفع به ضرا فى مجتمع لايزال يدين بالدين او يحترمه فليس له الا قيمته المادية المؤقتة .

وأصبحت الحياة وتكاليفها جد الجد ولب اللباب ، واصبحت مسائلها هم الشيخ ودرس الصبى وشغل الشاب ، واصبح الجهاد فى سبيلها والنجاح فى ميدانها مقياس الفطنة والذكاء ومعيار الطرافة واللباقة ورمز المروءة والشهامة .

وهنا يقف الداعى الدينى حائرا فى امره كيف يواجه هذه العقلية الجامدة والنفيسة الباردة فى سبيل الدين ، انه واجه العقول الثائرة على الدين فأخضعها ببراهينه . ووجد شكوكا وريبا تمكنت من النفوس فسلها بحكمته وملأ القلب يمانا وطمأنينه ولكن هاهنا يجد نفسه فى موقف غريب لم يعهده ، فلا انكار ولا جحود ولا إباء ولا استكبار ، ولا عناد ولا اعتراض ، ولا دليل ولا فلسفة ولكن حياد تام فى مسئلة الدين واستغناء عن كل مايتصل بالاخرة . واخلاد الى الأرض ورضى بالحياة الدنيا واطمئنان بها .

هنا يقف الداعى حائرا فى أمره كيف يواجه هذه النفسية ومن أى باب يدخلها انه يجد حولها غشاءاً من حب الدنيا والمال فلا سبيل اليها ولا نفوذ فيها إلا بطريق الدنيا والمال ، وان سبيل الدين غير سبيل المال وان طريق الغيب غير طريق الحس والشهود فماذا يصنع ومن أين يبدأ ؟

ان أتى على اعلى القوم نصائحه ووجه اليهم خطابه وحكمته ونثر كنانته فى الدين وأجلب عليهم بخيل العلم والبراهين فذهب كل ذلك فيهم سدى وأجابه لسان الحال قائلا « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون » .

قرأنا فى حكايات « ألف ليلة وليلة » ان سندباد البحرى وجد بيضة عنقاء فظنها لكبرها وضخامتها وملاستها قصرا من الرخام فدار حولها لعله يجد بابا يدخل منه فى داخل القصر ، ودار مرارا عديدة ولكنه لم يجد بابا وعرف بعد ذلك أنها بيضة عنقاء لاقصر من القصور .

كذلك يدور الداعى حول هذه النفسية المستديرة التى استهوتها الدنيا وغشى عليها حب المال أو الجاه فلا يجد فيها منفذا ينفذ منه الى النفسية وينزل فى أعماقها فيقطع منها الرجاء وينقلب منها خاسئا وهو حسير .

إذن روح هذا العفريت الجاهلى هو الاخلاد الى الأرض والرضى بالحياة الدنيا والاطمئنان بها وعبادة المال والمادة .

هذا مقتل هذا العفريت وهذا ابهره ووريده .

وانما ضاعت فصاحة الفصحاء ، وخطابة الخطباء وبلاغة المولفين وأصحاب اليراع واخلاص المخلصين وحكمة الحكماء لانهم لم يضربوا على الوتر الحساس ولم يصبوا العـدو فى مقتله .

بلغت المادية أوجها فى عهد الاستيلاء الأوربى وأصبحت فلسفة وفنا وحياة ودينا وليس مظهر من مظاهر حياتها ولا مركز من مراكز نشاطها اليوم إلا والفضل فيه يرجع الى اوربا وسيطرتها السياسيه والاقتصادية مباشرة أو بواسطة والى غزوها التجارى العالمى .

نافس تجار الغرب . بدافع من حب الغنى والثروه واحتكار الأموال - فى الصناعة والإنتاج وغزوا ببضائعهم الشرق وامتصوا بها دماءه ، ولم يقض ذلك لباناتهم لان نطاق الضرورة ضيق والجشع ماله نطاق ، فنافسوا فى إنتاج دقائق المدنية وفضول الصنائع وكماليات الحياة وصبوها الشرق صبا واستهلكوا فى ترويجها كل ذكاء وأدب وفلسفة وسياسة ، واستغلوا سذاجة الشرقى وحبه للدعة والفخر فما لبثت هذه الدقائق والكماليات ان دخلت فى اصول المعاش ولوازم الحياة فى الشرق واصبح الذى لايتحـلى بها لايعد من الاحياء ولا يعامل فى المجتمع معاملة سواء واخذت تبلابيب الشرقى واذهلته عن الدين والآخره وعن كل شىء غيرها فى الدنيا واهاجت عليه هموما لاارجاء لها وبعثت فيه شرها للمال لانهاية له واصبحت عليه الحياة جحيما لايسمع فيها الاهل من مزيد

ومايكاد الشرقى يصل الى هذا المنتجات وشروط الحياة على جسر من المتاعب والمصائب وعلى طريق من شوك وقتار ولايكاد يتحلى بها الا وتصبح هذه المستحدثات وآثاراً عتيقة وأطمارا بالية . ويهجم عليه الغرب بطراز حديث من المنتجات والمصنوعات فينكص على عقبية ويتزود لاقتنائها بالمال اللازم - بوجه مشروع أو غير مشروع - ولا يكاد يطلع بها على مجتمعه الا ويرحل المنسوخ ويحل الناسخ . وهكذا لايزال من حياته فى جهاد مضن شاق ومع المصانع الغربية والتصدير الغربى فى رهان دائم يسبقه فيلحقه ويلحقه فيسبقه ولا يزال من عيشه

فى مضض وغصص يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت .

أفسدت المدنية الغربيه والتجارة الغربية طبائع أهل الشرق وأذواقهم على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ألانت منهم القناة وأطفأت فيهم جمرة الحياة . أذهبت منهم التمعدد العربى والتجلد العجمى وأحدثت فيهم التخنث والتأنث الأوربى وأصبحت الفروسة العربية والنخوة التركية والفتوة الفارسية والبطولة الهندية والغيرة الافغانية حديثا من احاديث التاريخ وأصبحت الحياة فى حواضر الشرق بل وفى بواديه نسخة قاصرة ممسوخة من الحياة الغربية المصطنعة لها ضرائها وبثت لها سرائها ولها الغرم دون الغنم .

أصبح الناس فى كل بلاد فى إيثار الحضارة الغربية يسيل بهم سيلها الجارف ولا يملكون من أمرهم شيئاً وأصبح الوالد ولا يملك ولده والعاهل لا يملك أهل بيته بل وأصبح الانسان لا يملك نفسه أمام الهوى وانتقاد المجتمع اللاذع ، ووخز الضمير وغاص الناس فى بحر المدنية الى آذانهم فترى الصعاليك من العجم يغدون فى حلة ويروحون فى أخرى وترى الحفاة العراة العالة من العرب رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ويتفاخرون باقتناء السيارات الأميركية من أحدث الطراز وأفخر الأنواع حتى يخاف أن تنقرض الخيل العتاق من أرض الجزيرة التى ملات التاريخ والأدب بحديثها وأخبارها

شحنت البضائع الغربية أسواق الشرق الإسلامى وانبثت شرايين التجارة الغربية وعروقها — وهى طلائع السيادة الغربية وسيطرتها السياسية وسهامها التى لا تطيش — فى جوف أقدس البلاد الاسلامية وأحشائها وجاست خلال الديار وأصبح أهلها عالة على البضائع الأجنبية حتى عادوا لا يصورون الحياة والمعيشة بغيرها ، ولا يقضون حقوق الأعياد والأفراح الا بها . وامتصت هذه البضائع أموالهم بل دمائهم كالاسفنج تشربتها فى بلادهم وصبتها فى بلادها ، وهكذا أصبح مايكسبه المسلم بعرق جبينه وكد يمينه وبرزئه فى أخلاقه وعلى حساب دينه ينتقل الى البلاد الأجنبية .

التجأت الحكومات الاسلامية لتحقيق مشاريعها العمرانية كما تقول أو لقضاء مآرب رجالها كما يقول الناس الى الإستدانة من الدول الاجنبية فخفت لذلك ورحبت به ورضخت لها بعض المال على شروط تجارية وامتيازات سياسية وأقبلت على البلاد الاسلامية تحلب أضرعها وتستخرج الذهب الوهاج وماء حياة الصناعة والتجارة (البترول) من بطونها ويتهافت الفقراء الذين أجهدتهم الضرائب وتكاليف الحياة على أجورها وخدمتها تهافت الفراش على الضوء والجياع على المائدة وهكذا تصبح بلاد الاسلام بين أخطار من الاتحاد والاحتلال الاجنبى ،

ثم هنالك « الطابور الخامس » وهو ذلك الأدب المسلول المسموم الذى ولدته الثورة الفرنسية وأرضعته الفوضى الخلقية والإباحة فى اوروبا وغذته الشيوعية ، ذلك الأدب الخليع المستهتر الذى ينبت فى القلوب النفاق ويسعى غرس الشهوات ، ويقوض دعائم العمران ويفسد نظام الاسرة ويسخر من كل فضيلة ويستهين بكل أدب ونظام ويزين للقارىء مذهب اللذة والإنتفاع وانتهاز الفرص ويلخص التاريخ ويوجز الفلسفة والعلم فى حب المال والميل الجنسى ويصور العالم كله كأنه ليس الاظهور هاتين العاطفتين وليس وراء ذلك حقيقة علمية مبدأ سام أو غرض شريف ،

وقد انتشر هذا الطابور فى انحاء العالم عن طريق الادب والروايات والمجلات والراديو والسينما وتأثر به الحاضر والبـاد وتحدثت به العواتق فى خدورها ، وسار ينخر الحضارة الدينية والأدب الاسـلامى حتى قسرب العطب اليوم الى لبابه ،

وهكذا اصبح العالم كله شعوبا وحكومات وافراداً تحت سلطان المادية والقوة والجاه والشهوات قد شغلت منه كل موضع ومنفذ وملكت عليه جميع مشاعره واستهلكت فى سبيلها جميع مواهبه وقواه وتفكيره وذكائه وخلقت فى الانسان نفسية لا تؤمن إلا بالمحسوس ولا تفكر إلا فى اللذة والمنفعة والسعادة الدنيوية ، ولا تهتم الا بهذه الحياة ومطالبها الكاذبة التى ما أنزل الله بها من سلطان والتى إنما رضى على الانسان الحياة المزورة والمجتمع الفاسد والتجارة الجشعة .

كيف يحل فى هذه النفس المادية الدين الذى أساسه الايمان بالغيب وإيثار الآخرة على العاجلة الذى يقول « وما هذه الحياة الدنيـــا الا لهو ولعب وان الدار الأخرة لهى الحياة لو كانوا يعلمون » والذى يقول « فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى »

والذى يقوله نبيه صلى الله عليه وســـلم « اللهم لاعيش الا عيش الأخرة » ويقول « حفت الجنة بالمكارة »

إذن فالمادية فى هذا العصر هى علة العلل وعدو الدين الألد ومزاجه الأكبر وإن الغرب هو زعيمها الذى تولى كبرها ووكرها الذى تطير منه وتأوى اليه وفيه تبيض وتفرخ

فأين ذلك البطل الذى يمثل قصة الآدمى مع الجنى على مسرح التاريخ والواقع؟ وأين تلك الأمة التى تعارض هذا التيار الجارف وتأبى أن تفقد شخصيتها ومقومات حياتها وتغلب على امرها فتحول هذا التيار وتقلبه رأسا على عقب أو تقف فيه كجبل راسى أو صخرة صماء ، فيحول التيار مجراه ويتخذ طريقا آخر .

إن البطل الذى يمثل قصة الآدمى مع الأجنبى ويفتك به هو رجل الساعة وبطل الأبطال وفتى الفتيان

وإن الأمة التى تعارض هذا التيار وتغير مجراه هى امام الأمم المبعوثة إلى العالم فأين ذلك البطل ؟ وأين تلك الأمة ؟ ؟ هل تجيب الأمة الإسلامية وهل يجيب العالم العربى عن هذا السوال ؟ !

(١١)

بين العالم وجزيرة العرب

(بين العالم وجزيرة العرب تتردد مناجلة وتتجاوب همسات ، : . إن العالم يعتب على الجزيرة انطواءها وتخلفها عن تبعاتها الروحية ، ونسيانها لواجبها العظيم المرجو فى الهداية والتذكير . ويطلب اليها ان تسارع لنجدته من ماديته الخرقاء وجحيم صراعه المستمر . فعندها البلسم والدواء وقد طال بها الصمت والانطواء . . .

والجزيرة تجيب العالم معترفة بأنها قصرت بعض التقصير . وتود لو نالت حظها من نهضة العالم الحديثة الكبرى ، ولكنها تخاف مادية العالم . وتخشى ان تطغى عليها بعد ان فتحت امامها الثغرات . وتناديه راجية ألا يرهقها بماديته فيجرفها التيار وهى المعقل الأخير للروح . وتنصحه بأن يسعد نفسه كما سعدت هى من قبل بروحها وهدى عقيدتها)

الشرباصى

من العالم

الى جزيرة العرب

فرصة سعيدة ياجزيرة العرب . لى معك اليوم حديث خطير قد خبأته لك من زمان وصرفتنى عنه خطوب ونوائب شغلت خاطرى . إلا أن هذا الحديث قد ملك قلبي وثقل على نفسى فلم أر اليوم بدأ من أن أفضى به إليك ؛ وأتنفس مما أجده من الضيق والألم .

زهدنى فى هذا الحديث ماكنت أراه من انسحابك من الحياة وتنزلك عن القيادة التى تبوئتها زمنا غير يسير . وما كنت أراه من رغبتك فى العزلة عن العالم ومايقع فيه من حوادث ، ومايتجدد فيه من شئون . وكرهت أن أزعجك وأقلق بالك وقلت : لقد رقدت الجزيرة بعد سهر طويل سهرته فى مصلحتى واستراحت بعد عناء كبير تحملته فى سبيلى فلا ينبغى لى أن أوقظها وأقض مضجعها ولكن الخطب كان أجل من ذلك وأعظم ولم أر مفزعا بعد الله إلا إليك وقلت : لقد وجدت فى هذه الجزيرة غوثا ونجدة قبل ثلاثة عشر قرنا ، وقد أحيط بى يؤمئذ ، فعسى أن أجد فيها فرجا وروحا مرة ثانيه .

أراك أيتها الجزيرة العزيزة تنظرين إلى نفسى نظرة الحياء ، وتلقين على نفسك نظرة الازدراء . تنظرين إلى تقدمى فى الصناعة والأختراع وإلى تسخير الإنسان للبخار والكهرباء ، وتسخير الطاقة الذرية فى الزمن الأخير . وتقولين فى شيء من الخجل والاعتراف وفى شيء من الجراءة والشجاعة . لقد تقدم العالم بعدما خرج من حضانتى تقدما مطردا وقطع أشواطا بعيدة فى العلم والمدنية هونى عليك أيتها الجزيرة فإن هذا الانسان الطائر فى الهواء العابث بأمواج الأثير لايزال طفلا صغيرا فى أخلاقه وفى شعوره الاجتماعى وفى عناده وقصور نظره وأثرته ، وإيثاره الصور والاشكال على الحقائق والمعانى ، وافتتانه بالمهازل والملاهى . فلو علمت أيتها الجزيرة ماوراء الاكمة لهان عليك الخطب وعلمت أن الانسانية لاتزال حيث خلفتها ، وأن الانسان وإن أصبح يطير فى الهواء كالطير ويسبح فى البحار كالسمك فإنه لا يحسن أن يمشى على الأرض كإنسان .

أراك أيتها الجزيرة تنظرين بدهشة واستغراب إلى معاهدى العامرة وإلى مكتباتى الزاخرة ومطابعى المتدفقة وحركة التأليف والنشر القوية. وإلى هذا الأدب الخصيب الذى يطلع كل يوم بشىء جديد. ولكن لا تعجلى . إن روح هذه الحركة التجارة والاستغلال ، وان كثيرا من حملة الأقلام يتاجرون بأخلاق الناس وضمائرهم ، ويحبون ان تشيع الفاحشة فى المجتمع وتروج بضاعة الخلاعة والاستهتار ، ولا تستغربى إذا حدثتك ان كبار المثقفين والأدباء عندى لا يفضلون فى الأخلاق والصبر على مكاره الحياة والعزوف على الشهوات وإنكار الذات على الأعراب الذين يضرب بهم المثل فى الجفاء والجهل والأمية .

أراك أيتها الجزيرة تصغين إلى الكلمات الرنانة التى تلوكها ألسنة السياسيين وترددها اقلام الصحفيين كالعدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والجمهورية كأنك تسمعين كلمات لها معنى وتطبيق فى الحياة كما حدثت العالم من قبل بكلمات صادقة يوم كان اللفظ دليلا على معنى ويوم كان الانسان يرى نفسه مأخوذا بقوله .. هيهات لقد تقدم الزمان واصبح كثير من الكلمات لا يقصد بها معنى ولا تراد بها حقيقة . فرحم الله من اعتمد على الكلمات ورحم الله من صدق اهلها فى مايقولون

اراك أيتها الجزيرة تنظرين إلى فتغبطيننى على ما تعتقدين عندى من صفاء وسرور وراحة ونعيم وهدوء وسلام لقد استسمنت ياهذه ذا ورم . انا جسم قد علتنى اورام غير طبيعية فظننى الجاهل صحيحا سليما مع انى مريض دنف اشكو فى كل عضو من اعضائى أوجاعا واوصابا اشكو فى قلبى وجعا وفى راسى صداعا وفى عينى رمداً . وفى دمى نزفا وفى نفسى اختلالا . تارة اصاب بطوى وجوع تكاد تزهق له نفسى واخرى ببطنة وتخمة تكاد تقضى على وتقتلنى . وقد اجتمع حولى متطببون ومشعوذون يعالجوننى بالأمراض ويداوون الداء بالداء وبعمليات جراحية خرقاء. لقد قتلونى قتلهم الله . عالجوا مشاكل الاقتصاد بحركة منع الولادة..وسوء التصرف فى المال بتحريم الملك الشخصى..واستبداد الأشخاص باستبداد الأحزاب واحتكار الأفراد باحتكار الشركات .. والراسمالية الجائرة بالاشتراكية المرهقة والاشتراكية العمياء بالجمهورية العوراء ، لقد داووا جورا بجور وظلما بظلم وإسرافا بإسراف وجهلا بجهل وعلة بعلة فزادونى مرضا على مرض وضعفا على ضعف .

اليك جئت ايتها الجزيرة العربية بما معى من ادواء وأوجاع وقد فضحت امامك نفسى وكشفت سرى فهل تغيثينى كما اغثتنى من الأحمر. فلست اليوم بأقل حاجة إلى إسعافك وإنجادك من يوم بعث رسولك واشرق على نورك !!

لا تغرنك ايتها الجزيرة منى مظاهر المدنية الجوفاء وهذه الطائرات المحلقة فى الهواء وهذه الناطحات للسماء وهذه الآلات التى ملأ صوتها الفضاء. فيسهل على ان اتخلى من كل هذا ومن كل كنوزى واتنازل عن كل ماتنظرين اليه نظر الغبطة واستبدل بها ما فقدته من الايمان الذى جاءت به الأنبياء والرسل. والذى فقدت معه قوتى وحرارتى وشخصيتى وروحى واصبحت جسدا ميتا قد يطفو على الماء وقد يحمله الهواء.

نفسى فداؤك يا جزيرة العرب خذى منى ماشئت من سيارات وقطر وطائرات وماكينات وآلات وزخارف وادوات وتصدقى على بهذا الايمان الذى لا اجده فى اسواقى ولا تنتجه مصانعى على كثرة ماتنتج وعلى غرابة مايخرج منها ولم اكتسبه من مكتبتى الواسعة، ولا يفيدنى إياه فلاسفتى ومفكرى وكتابى وزعمائى إنما أفاده العالم «أمى» لا يزال فى احضانك، فعاش هذا العالم بعد ماكان ميتا وابصر بعد ما كان اعمى؛ وتماسك بعد ماكان متزعزعا ولم يصب احدا شىء من هذا الايمان إلا عن طريق هذا النبى الامى ولن يصيب احداً إلى خر الابد إلا عن طريقه، لذلك جئتك سائلا فلا تنهرينى ولا تردينى خائبا!

انا أيتها الجزيرة حائر تائه قد تكدست عندى آلات وادوات ووسائل ماعرفت كيف اصنع بها وكيف استعملها فإنى إلى الان لم اعرف ما غاية هذه الحياة وما نهايتها ومن خالق هذا الكون ولأى شىء خلقه ومامركز هذا العالم وماروح هذه الحياة!. وما هذه الآلات والمصنوعات بل ماهذه القوى المودعة فى هذا الكون وهذه الخيرات المنبثة على الأرض إلا كسرا من كسور هذا العالم الكبير فمن كان حائراً تائها فى هذا المجموع الكبير كان خليقا بأن يكون حائراً تائها فى كسوره خابطا فى استعمالها قد يستعملها فى خير وقد يستعملها فى شر، وطالما يستعملها بلاغاية. والغايات لاطريق الى معرفتها الا الانبياء والمرسلين اما المكتشفون والصناع فانما موضوعهم الآلات والصناعات ولما تفردت بالوحى تفردت بالغايات

ولما عنيت بالصناعة والاكتشاف تفردت بالآلات والمصنوعات وبانفصالها شقيت الانسانية فهلمى يا مهد الايمان ويامهبط الوحى نتعاون على سعادة الانسانية وصالحها فانجدى العلم والصناعة بالغايات والروح والايمان. وأنجدى الدين بالآلات والوسائل حتى تسير الانسانية رشيـدة الغاية سديدة الخطى على جناح السرعة والقوة فيك تستفيد صلاح الغاية وصحتها وبى تستفيد سرعه الوصول الى هذه الغاية الرشيـدة .

جودى على أيتها الجزيرة بنفحة من نفحات محمـد ﷺ أحل بها مشاكل حياتى وألغاز مجتمعى ، وأحيي موات قلبى وأطفىء بها جحيم المادة التى أحاطت نيرانها بهذه المدنية وبكل فضيلة إنسانية ،وقد هبت نفحة منك فى القرن الاسلامى الأول فحولت هذا العالم الفسيح من جحيم إلى نعيم ، وقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الله نبيه . فعودى على هذا العصر بنفحة جـديدة تنفخ فيه روحاً جديدة وتبعث هذا العالم بعثا جديداً !

إنك تجودين على أيتها الجزيرة العربية بمقـدار عظيم من البترول أدير به ماكيناتى وأسير به عجلاتى فأنا أدين لك بالفضل وأشكر صنيعك ولكنى كنت أنتظر منك — أيتها الجزيرة السعيدة يامولد نبى الرحمة — شيئا أعز وأثمن من الذهب الأسود . كنت أنتظر منك أن تخرجى لى عجلة الحياة التى غاصت فى الوحل وأن توجهيها التوجيه الصحيح وان تخلصى ركابها من هذا المأزق فقد عجزت حكمة الحكماء وصناعة الصناع من إخراجها فاخرجيها بما معك من حكمة النبوة وبقية قوة الرسالة والايمان واليقين وسيريها بنور الشريعة الالهيـة والهداية الاسلامية !

وفى الأخير أقول إنك يا جزيرة العرب قطعة منى يصيبك خيرى وشرى ويصيبك لفحى ونفحى .. مايمكنك أن تعيشى منعزلة عنى فإن أدركتنى وأصلحت شئونى فإلى نفسك أحسنت ، أولا ، فعليك وعلى أهلك جنيت .. !

من الجزيرة العربية الى العالم

مساء الخير أيها العالم . لقد سمعت كلمتك الرقيقة التى تنم عن إخلاص وصدق وحب وقد خاطبت يوم خاطبنى جزءاً منك وعضواً حيا من أعضائك يشعر بشعورك ويتألم بألمك ويشاركك فى السراء والضراء وفى الشدة والرخاء .

لقد ذكرتنى بذكرك القيادة العالمية عهداً كلما تذكرته تحركت أحزانى وهاجت شجونى ، لقد كنت كما تعرف جزيرة منعزلة عن العالم لا أسترعى نظراً ولا أشغل بالا ولا ترفع رجالى رأساً ولا تعيرهم شيئا من العناية ، يقول رجالك المتمدنون إذا سئلوا عنهم : أعراب من جـزيرة العرب رعاة أبل وسكان وبر وأصحاب فصاحة لايعرفون الحضارة والمدنية والعلوم بينما بلغت المدنية أوجها فى بلادك الرومية والفارسية وبينما كنت تزخر بالبضائع والابنية الشامخة والعلوم والحرف .

ولكن — من غير مؤاخذة — لقد انطفأت شعلة الحياة فى جسمك وفقدت حرارتك الغرزية وقد ضاعت رسالة الأنبياء فى ترف الأغنياء وبؤس الفقراء وجور الأمراء ومطالب الحياة وتكاليفها التى لم تترك فراغا فى القلب ، وسعة فى الوقت ، وبقية فى الصبر ، حتى اصبحت لا يوجد فى إقليم واسع منك من يفكر فى الآخرة ويهتم بدينه وغاية حياته وقلما يوجد فى قطر من يعبد ربه .

وقد كنت من غير تواضع مصابا بأدواء خلقية واجتماعية ودينية وبما تزرى بأدوائك وعيوبك الاجتماعية ولكن كانت لاتزال فى جمرة من الحياة ، صبر على المكاره ، وثبات على المبدأ واستماتة فى سبيل العقيدة ، واستهانة بالحياة والمادة ، وبساطة المعيشة إلى غير ذلك مما يليق بأمة نيط بها جهاد طويل عريض .

نظر الله إليك وهو العليم الخبير فرأى من مايرضى السياحين ويسر المتفرجين من زهو المدنية ولا يرضى الذى خلق العالم لغاية وخلق الخلق لعبادته ونظر إلى امم الارض فعمد إلى احطها معيشة واخملها ذكراً واقواها على حمل الأمانة فاختارها لرسالته وابتعثها إلى هذا العالم المنهار .

ارسل إلى رسولا ولدته أم القرى وعاش فى احضانى بين سمعى وبصرى

فإذا هو قرة عين الانسانية وجمال الدنيا وعلى جبل من جبالى فى يوم لم أعرف خطره اكرمه بالرسالة وبعثه إلى ليكون للعالمين نذيرا . واختار له رجالا انجبتهم ولكن لم الق لهم بالا ولم احسب لهم حسابا ولكنهم اثبتوا قيمتهم وكفايتهم أبر الناس قلوبا واعمقهم علما واقلهم تكلفا واعلاهم همة ، واثبتهم جنانا واقواهم إيمانا يالهم من عباد ليل واحلاس خيل .

هنالك نهضت بروح غير الروح وبقوة غير القوة هى روح الرسالة وهى قوة الايمان وفاجئتك بحماسة وسرعة لا عهد لك بهما فإنه لاعهد لك من قديم الزمان بالايمان وقوته فنظرت إلى شزراً وظننتنى من الغزاة الطامعين والملوك الطامحين وظننت انى خرجت لمصلحتى ودافعى الجوع والفقر وقلة الموارد فعرضت على مايشبع جوعة الزاحفين ويرعى الملوك الطامعين فإذا الأمر بالضد وليس الدافع إلا الشفقة عليك والحرص على إنقاذك من داهية الوثنية وشرور المدنية فوقفت فى سبيلى من غير جدوى وقاومتنى من غير نتيجة فلم تزل قوتك المادية تنحل وتذوب امام حرارة الايمان وقوة الروح حتى وضعت اوزارك واستسلمت للقضاء الواقع ولما زالت عنك دهشة الفتح اقبلت على رسالتى تدرسها وتتفهمها فاذا هى اساس المدنية ومعراج الانسانية ، فأمنت بها بلاد ودانت بها امم فأحلت لها الطيبات وحرمت عليها الخبائث ووضعت عنها إصرها والأغلال التى كانت ومنحتها الامامة فى العلم والدين والسيادة فى الحكم والسياسة .

وهنالك ـ لا اخفى عنك ـ وقعت كارثتى بل كارثة العالم ، فقد التهنى هذه الفتوح الواسعة والغنائم الزاخرة ، والكنوز العظيمة والمدنية الباهرة التى لم يكن لى بها عهد فأطفأت شعلتى واخمدت حماستى وبردت روحى ، وابتاعت إيمانى ووقع لرجالى ما اخبر به نبيهم ﷺ « لا الفقر اخشى عليكم ولكن اخاف ان تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم » ، فأصبح رجالى غير الرجال اجسام كأجسامهم الاولى بل هى اروع وملابس كملابسهم السابقة بل هى افخر ، ووجوه كوجوههم بل هى اشد نضارة وطراوة ولكن ارواح باردة ونفوس خامدة وقلوب خاوية (إذا رايتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) .

هنالك اعترانى كسل وفتور وإعياء ورأيت الاعتزال عن معترك الحياة فإنى لا أطيقه فرجعت أدراجى وأنطويت على نفسى. لقد كان اعتزالى عن الحياة رزيئة إنسانية عامة وكارثة عالمية عظمى، فقد بقيت الامم قطعانا من الغنم لا راعى لها وبقيت القافلة وقد جد بها السير وغاب عنها الخريت.

هنا لك خطبت الامم فى مدنيتها وعلومها وصنائعها وسياستها وهنا كانت مصيبتك فقد اكتشف لك المكتشفون وعلماء الطبيعة القوى الهائلة والوسائل الجبارة وسخروا لك البلاد والكهرباء والماء والهواء وكرسوا لك العلوم والحكم ولكن استخفوا بالروح وهزأوا بالإيمان وأهملوا تربية الأخلاق فأصبح تقدمك معوجا وجاءت نهضتك الأخيرة نهضة هوجاء خرقاء وكنت كشجرة برية تمتد فروعها وتطول على غير نظام وعلى غير نسق فهذا ذاهب إلى اليمين وذلك إلى الشمال وهذا وجد متسعا فطال وهذا تضايق فقصر أو كولد إنسان ينشأ فى مغارة دب أو حجر ذئب يجمع بين حدة الأظفار وقوة الساعد. وشراسة الأخلاق وصغر العقل.

لأجل ذلك وقع ماتشكو منه من تضخم الآلات واضمحلال الغايات وسوء التصرف فى القوة والخبط فى العلم وفساد أخلاق المثقفين ونهامة الأدباء والمؤلفين وكذب الصحفيين وتزوير الزعماء والسياسيين وخرق الأطباء والمعالجين وماتشكو منه من علة الروح واضطراب للقلب وانزعاج النفس فإن هذا كله — سامحنى أيها العالم — من لوازم حضارتك وعقليتك التى خلعت ربقة الدين واستغنت عن هم الانبياء والمرسلين وأسست حياتها على القياس والتخمين وعبادة المادة والقوة والشهوات.

ولو رأى أحد حضارتك فى تكوينها لتنبأ بمثل هذه النتائج وانذر منها كما يرى الانسان بذرة فيتنبأ بثمرتها. لقد سرتنى شجاعتك أيها العالم باعترافك بالافلاس فى الإيمان وأن مصانعك لاتنتجه وإنه لايوجد فى اسواقك ولا عند علمائك وان مصدره هو الرسول الأعظم الذى يستنكف من اتباعه فلاسفتك وحكماؤك وأكثر منهم قادتك وزعماؤك فلا تستحى أيها العالم المتنور واحرص

على هذا الإيمان وكن جاداً فى طلبه مهما كلفك من التواضع والتعب فإنك بدونه جسد بلا روح وبيت بلا نور .

لاتعرض على مصنوعاتك من سيارات وزخارف وأدوات فقد أخذت منها الكفاية وفوق الكفاية بل أريد أن أشكو إليك أن سياراتك قطعت نسل خيلى العتاق التى كان يضرب بها المثل فى الخفة والأمانة والوفاء والغناء فى الحرب وقد أغرقنى زخارفك ومصنوعاتك بالبذخ والتبذير والراحة والكسل والاتكال على الآلات فضعفت الاجسام ووهنت القوى وتعطلت أيد عاملة وانصبت دماء أجسامنا أجسام غيرنا فاسترد منى فضول مدنيتك لعلى أستعيد بعض قوتى ونشاطى وأخلاقى التى كنت فيها مضرب المثل .

لقد أعيتك أيها العالم معضلات مدنيتك والغاز مجتمعك وإنها لتتحدى تشريع المشرعين وجهود المصلحين فتعجزها فاطرح عنك أيها العالم الكبر والحياء وأقبل على هذا الكتاب الخالد الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم واستفته وأرجع اليه فى ماينوبك من الحيرة والعجز وادرسه ككتاب لاعهد لك به من قبل وقد نزل اليوم ليرشدك ويأخذ بيدك وانظر كيف يحل لك عقدة بعد عقدة ومعضلة بعد معضلة من حياة الفرد إلى حياة المجتمع وفى السياسة والاقتصاد وفى المدنية والاخلاق ويمنحك مبادىء ودعائم تؤسس عليها المدنية الصالحة وتجمع بها بين سعادة الدنيا والاخرة إن هذا الكتاب المعجز يخاطب اليوم فلاسفتك وزعماءك بما خاطب به رجال القرن السادس المسيحى (لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) .

غلبتك المادة أيها العالم فجئتنى لا ترغب إلا فى ما احتوى عليه من كنوز الثروة والقوة ولا يهمك إلا مايجرى فى بطنى من عيون البترول فأعطيت سؤلك واشبعت نهمتك وإنما يعطى السائل على قدر همته وقد جئتنى اليوم تسأل أعز ماعندى وأنفع للانسانية تسألنى الارشاد والتوجيه فأهلا بك وسهلا أيها الزائر الكريم ودونك المنهل العذب الصافى من الدين السماوى ومن الوحى المحمدى

الذى احتفظت به طول هذه المدة فارتو منه ماشئت واستق منه الايمان واليقين ومبادى الحياة السعيدة والعلم الصحيح والعمل الصالح والخلق المستقيم والاتجاه الصحيح فى كل عمل وحركة وفى كل دقيقه وجليلة ذلك الاتجاه الذى لا يكون إلا بالإيمان بالله وبرسله واليوم الآخر والحساب والعقاب ، تشرب هذه المبادىء من هذا المعين الصافى واستمد منه الحيـاة والقوة والشباب والرسالة واطلع عالما فتيا مشرقا يخلف العالم الشائب المظلم العليل الذى قد فقد الروح والحياة والشباب وأصبح لايحمل رسالة للانسانية .



(١٢)

إسمعى يامصر

(يامصر ... إن فيك كثيراً مما يستوجب التحية والتقدير . بل مما يثير الاعجاب والاطراء . فيك النهضة الواثبة ، والحياة الدائبة ، والموارد الغزيرة ، والخيرات الكثيرة ، والأيدى القوية ، والعزائم الفتية ، وفيك العلوم والفنون والاداب والصناعات ، ولك التاريخ الطويل العريض ، وموقعك الجليل الفريد ، ومن هنا تتضاعف مسئولياتك ، وتكثر تبعاتك . وانت لها أهل يامصر ، واذا قصرت بعد هذا كله فاللوم عسير ، فكونى الزعيمة المتقدمة ، وكونى الناهلة من ينابيع المدنية الصافية ، ولكن لا تفرطى بعد هذا او قبله فى الواجب الخطير وهو حمل الاسلام إلى الغرب . والدفاع عن العقائد والأخلاق ، والحرص على تنفيذ مبادىء الاسلام و تطبيق احكامه ، ففي ذلك عز الدنيا والاخره)

الشرباصى

أسمعي يامصر

أحييك يامصر بتحية الاسلام وأحيي فيك الزعامة للعالم العربى . الزعامة التى كانت عن جدارة واستحقاق ، لاعن احتكار واغتصاب . وانك تحلين اليوم فى العالم العربى محل السمع والبصر . ومحل العقل والفكر ، رضى به الناس أم لم يرضوا ولكن الواقع لاينكر

أحيي فيك يامصر نفاق سوق العلم ورواج بضاعة الأدب . وتقدير رجال العلم والفن . فقد أنجبتهم واحتضنتهم ودافعت عنهم . وحدبت عليهم . فهم أبناؤك البررة وأنت الأم الحنون .

أحيي فيك الأزهر الشريف الذى كان ولا يزال المنهل المورود فى الدين والعلم للعالم الإسلامى . والذى لايضارعه ولا يزاحمه فى تقدم السن وطول العمر وامتداد الظل و كثرة الانتاج معهدا وجامعة على وجه الارض .

أحيي فيك المكتبة العربية التى فاضت وامتدت كالنيل وأصدرت كتباً ومطبوعات عربية لو وضع بعضها فوق بعض لكانت مثل الاهرام أو أرفع .

أحيي فيك غيرتك على اللغة العربية . وجهادك فى احيائها ونشرها . ورفع شأنها وتوسيعها : حتى أصبحت بجهود أدبائك وكتابك ، وبفضل الصحافة المصريه والحياة السياسية ، وبفضل حركة التأليف والترجمة والنشر ، وبفضل المجمع اللغوى لغة راقية عصرية علمية سياسية فنية لاتقل فى غزارة مادتها وقابليتها لتعليم العلوم العصرية والطبيعية والرياضية عن أى لغة من لغات الغرب ،

أحيي فيك عدداً مشرفاً من الأدباء والكتاب ، فيهم الكاتب المبدع ، والمترسل القدير ، والأديب الفنان ، والباحث الناقد ، والعالم الضليع ، والمؤرخ الأمين والفيلسوف الحكيم ، والمحدث اللبق ، والروائى المصور ، والمتهكم اللاذع ، والمضحك المطرب ، والمصلح المنتقد ، والشاعر المطبوع . والسياسى المناقش . والصحافى البارع . إذا كتب أحدهم فى موضوع ردد العالم العربى صداه . وافتخر المتأدبون بتقليد أسلوبه والنسج على منواله . واحتجوا به كما يحتج بشعر القدماء

حي فيك يامصر هذا وغير هذا . ولكن لى معك اليوم شأنا آخر ، إن لى معك كلاماً أرجوا أن تلقى إليه سمعك وتشهديه قلبك فأنا ضيف قد نزل بك ومن حسن الوفادة وتمام الضياقة الاستماع إلى كلام الضيف والاقبال عليه بالسمع والقلب .

إن مسئوليتك يامصر أوسع وأعظم من تأدية رسالة الأدب وخدمة لغة العرب . وما تجودين على الاقطار العربية الشقيقة برشحات الثقافة الاوربية وفتات المدنية الغربية إنك بين آسيا وأوربا فأنت ملتقى الثقافتين ومجمع البحرين ، انك وسط بين معهد الاسلام وشروق نوره ، وبين مولد الحضارة الغربية ومبعث العلوم العصرية ، فعليك مسئولية القارتين ، وعندك رسالة الثقافتين .

فأما مسئولية آسيا والاقطار العربية فلا تخرجين منها يامصر حتى تكونى قنطرة تعبر عليها الى البلاد العربية تجارب أوربا وعلومها ونشاطها وكدحها فى الحياة وجهادها للبقاء ، هنالك تقومين برسالتك ووظيفتك ، لهذه البلاد العزيزة التى ترتبطين منها برابطة دينية وروحية وثقافية وسياسية .

وأما مسئولية أوربا فلا تخرجين منها حتى تبلغى رسالة الجزيرة العربية — وهى الاسلام الذى أحتضنته من زمان — الى أوربا ، وحل المشاكل التى أعيت كبار المفكرين وأتعبت عظماء المشرعين ، وبذلك تودين واجبك المقدس نحو هذه القارة الاوربية التى استوردت منها شيئاً كثيراً من العلم والمصنوعات والمنتجات . ونظمت عليها مدنيتك وحياتك تنظيما جديدا ، وتحسنين اليها أكثر مما أحسنت اليك وتصدرين اليها أفضل مما صدرت اليك .

انك يامصر بنيت القناطر الخيرية فانتظم الرى وأزدهرت الزراعة وأخصبت البلاد . وأريد أن تبنى قنطرة خيرية اخرى هى أكبر القناطر فى العالم وأنفعها ، تصل بين بحرين لم يزالا منفصلين . وبين حضارتين لم تزالا متنافستين . وبانفصالهما وتنافسهما شقى العصر الجديد . فلو انك وصلت بينها وكنت قنطرة تتبادل بها القارتان خيراتهما ومحاسنهما . وفرت على الانسانية جهوداً واوقاتا كثيرة وصنتها من الضياع كما أن قناطرك الخيرية وفرت على مصر مياها كثيرة ونظمت امر الرى

لقد كان حفر قنال السويس أكبر حادث فى التاريخ العصرى غير مجرى التاريخ وأحدث انقلابا فى السياسة والتجارة ، ولكن من يستطيع أن ينكر ن شقاء الأمم الشرقية كان أعظم وأعظم من سعادتها ، وأنها لم تجن من السويس إلا عبودية واستعمارا والعالم الآن فى حاجة الى قنال آخر ، قنال التعارف الصحيح المتبادل المتوازن ، وإليك وحدك يامصر ، القيام بهذه المبرة العظيمة لمكانك الجغرافى وأهميتك السياسية وثروتك الثقافية ومركزك الروحى تعلمين أن دولة لاتتزن ميزانيتها ، ولا تتحسن احوالها الاقتصادية ، إلا إذا وجد توازن بين حركة التصدير والتوريد ، أوكان تصديرها أكثر من توريدها . ولكننا فى الشرق نورد أكثر مما نصدر ، وكان السويس أكبر مطية من مطايا هذاالتوريد فلا نريد قنطرة أو قنالا يكون معبر البضائع الأجنبية من افكاروآراء وفلسفات واخلاق إلى اعماق الشرق واحشائه، بل نريد قنالا يساوى بين التوريدوالتصدير ويصدر افضل ماعند الشرق الاسلامى من رسالة وعقيدة وخلق وعلم ، ويورد احسن ماعند الغرب من منتجات ومصنوعات وتجارب واكتشافات ومرافق الحياة ، فكونى يامصر ذلك القنال الأمين العادل الذى لا يسمح بالمرور إلا للصالح الفاضل .

إن لك يامصر يدين ، تخذى من الغرب مافاق فيه من علم وتجربة فالحكمة ضالة المؤمن ومدى اليه يدا اخرى ، يد المساعدة والكرم ، وجودى عليه بما انعم الله عليك من نعمة الايمان وشرف الاسلام فذلك الذى لا يملكه الغرب ولا يستغنى فيه عنك ، وقد انتهى به افلاسه فيه الى ماترين من فوضى وانحلال يتصدق عليه بهذا الايمان ورسالة الروح ، ولاتنسى ابدا ان اليد العليا خير من اليد السفلى .

كونى يامصر رسول الإسلام الى الغرب ، واحملى اليه رسالة محمد ﷺ تلك الرساله التى حملها العرب الى الأمة الرومية والأمة الفارسية فأنقذتهما من مخالب الموت وافاضت عليهما ثوبا قشيبا من الحياة ولونا جديداً من النشاط وليس الغرب اقل حاجة الى هذه الرسالة وهو فى دور التفكك وتنازع الموت والحياة من الأمة الرومية والفارسية اليها. وقديما اختار الملوك وأصحاب الرسالة

السماوية رسلا من عشيرتهم والأقربين اليهم ، ولك من إبراهيم واسماعيل ومحمد ﷺ رحم ماسة وقرابة خاصة ليست لقطر من الاقطار الاسلامية بعد الجزيرة العربية .

إن اوربا قد شاخت ونضجت كالفاكهة التى ادركت وضعف الغصن عن حملها فاستعدى يامصر الاسلامية لتحلى محلها فى الزعامة العالمية وقيادة الأمم ، وماذلك بعزيز ولا بمستحيل اذا تم استعدادك الروحى والخلق والمادى . واذا كانت اوربا قد احتفظت بالقيادة العالمية هذه المدة الطويلة وليست عندها رسالة عامة للانسانية ولا دعوة مخلصة لأمم العالم وعندها كل مايضعف ثقة العالم بها من وطنية وعنصرية وتقديس للنسل الآرى وادلال باللون الأبيض ونزعة تجارية واستعمار ، فكيف لايرضى العالم بقيادتك وعندك الرسالة التى تضمن سعادة العالم كله ، ودين لا يفرق بين الأوطان والعناصر والألوان ؟

إحرصى يامصر على رجولة أبنائك وأخلاقهم ، وصونى شبابهم وشرفهم ودينهم وصحتهم من أن يعبث بها العابثون أو يتجر بها المتجرون ممن يعيشون على أثمان الأعراض والأخلاق ويحبون ان تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لتروج بضاعتهم وتزدهر تجارتهم ، أولئك هم أصحاب الروايات الخليعة والصور العارية والأدب المكشوف ، فانك يامصر فى محل الزعامة والقيادة للشرق الأوسط وفى طريقك إلى الزعامة والقيادة للعالم الإسلامى ، ولا تأتى الزعامة والسيادة إلا بعد الاستقامة والثبات مزالق الانسان والنجاح البارز فى امتحان العفة وطهارة الأخلاق ، واذكرى قصة يوسف التى مرت على أرضك ، ووقعت بين سمعك وبصرك كيف ثبت فى الامتحان ، وكيف حافظ على دينه وعفته ، فكانت نتيجة ذلك الثقة والاعتماد والسيادة والملك ، واقرئى إن شئت « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » ، بل ولا حياة ولا شرف إلا بالرجولة والأخلاق ، فكيف وانت فى ميدان القتال وساحة الجهاد فلا بد ان تحفظى وصية قائدك الكبير سيدنا عمرو بن العاص وتذكرى ماقال لخلفائه فى ارضك : « واعلموا انكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم » .

فكافحي يا مصر الوباء الخلقي الذي يقضي على حيوية الأمة اشد مما تكافحين وباء الكوليرا الذي يقضي على حياة بعض الأفراد ؛ وطاردي كل من يحاول ان يزعزع العقيدة فى شعبك ، ويزلزل الايمان ويفسد الخلق ، اشد مما تطاردين من ينشر الوباء او يسبب الأمراض او ينقل إلى ارضك الميكروب ، فلم يسمع ان الامة ازومية العظيمة ماتت وبادت بسبب وباء او مرض وان اليونان اجتاحهم مرض من الامراض ، ولكننا قرأنا فى التاريخ وشهدت انت ان هذه الامم كانت كلها فريسة التفسخ الخلقى ، والامراض الاجتماعية ، فاحذرى يا مصر صانك الله وحرسك ـ هذا المصير المؤلم .

إن العالم العربى قد احلك يامصر من نفسه محلا رفيعا ووضع ثقته فيك وفتح لك اذنيه وعينيه ، فاتقى الله يا مصر فيمن ائتمنك ووثق بك فى نفسه وعقله ، ولا تصدرى إليه من ادبك ومطبوعاتك يزعزع من إيمانه واخلاقه وقوته المعنويه الروحية ، كما لا ترضين ولا ترضى كرامتك ومروءتك ان تصدرى إلى زبائنك من الدول والبلاد الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة ولا تقبلين ان يصدرها اليك احد ، وصدقيني يا مصر العزيزة ان هذه الروايات الخليعة والادب الماجن افسد واضر للأمة والحياة من الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة . إنك زعيمة العالم العربى فلا تغلبنك النزعة التجارية ولا تغرنك المنافع المؤقتة ،فلا يكون زعيما ولا يكون عظيما من يؤثر العاجل على الآجـل ، والمنفعة الفرديه على المنفعة الإجتماعية ، والاثرة على الإيثار .

انك يا مصر من اغنى بلاد الله ، ولست اعنى بالغنى خصب الارض وكثرة الموارد ، وانك لغنيه فيها من غير شك ، ولكني اعنى غناك فى الموادالخامة وهى الشعب الذى توفرت فيه المواهب والقوى ، خصوصا ما يسكن منه فى اريافك ، فهى المناجم التى لا تزال مدفونة ، والمعادن التى لم تستخرج بعد ، هذا الشعب قوى الإيمان قوى الشخصية ، قوى الجسم ؛ فلو انك احسنت تعليمه وتربيتهوافدت من هذا الإيمان ووضعته فى محله لكان حارسك الامين وجندك القوى وثروتك العظيمة .

قد اختار الله لك يا مصر قارة من أوسع القارات وأكثرها مواد خامة هى القارة الافريقية ولا يزال جزء كبير منها على سذاجته وفطرته ، ولا تزال فيها امم على الجاهلية والوثنية ، وعلى الجهالة والضلالة ، ولا تزال فيها امم كاللوح الصافى يكتب الانسان فيه مايشاء ، وهذه الاجزاء من القارة وهذه الامم خير حقل لجهودك وتربيتك ، وخير ارض لزراعتك وغرسك ، فارسلى اليها دعاتك المبشرين ورجالك المصلحين ، وعلماءك المرشدين وأبناءك المعلمين ؛ يبلغونهم الدين ويتلون عليهم آيات الله ويعلمونهم الكتاب والحكمة ، وبذلك تنقذين بإذن الله نفوساً كثيرة من النار ، وتخرجينها من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها وتكتسبين قلوباً نقية وارواحا فتية وأجساماً قوية ، ويكون ذلك خيرا لك من هذه الأمم والدول الغربية التى تخطبين ودها وتحرصين على صداقتها وهى لاتدوم على حال بل تجرى وتدور مع أغراضها المادية ومصالحها السياسية ، فيوما هى معك ويوماً مع أعدائك ، وإذا كانت معك لم تكن بإخلاص وصدق ، وإنما هى المطامع والمصالح . وما أضعف الصداقة التى تقوم على المطامع والأغراض !

وأخيراً أريد أن أقول فى اذنك يا مصر إن لله فى خلقه شؤونا وإنه أعظم غيرة من كل غيور وانه لايعطى نعمة دينه الا من يعظمها ويجلها ويقدرها حق قدرها فإذا رأى منك استغناءاً عن الدين وما ينبىء عن احتقار لشأنه واستصغارا لأمره وزهداً فى الاسلام ، وانصرافا عن خدمته وتقصيرا فى اداء رسالته واعتزازا لمبدأ غير الاسلام وتشرفاً بغير محمد عليه الصلاة السلام استغنى عنك - على مآثرك السابقة وثروتك الضخمة ومدنيتك الفخمة - « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » ، وجاء لخدمة الاسلام وقيادة الأمم الاسلامية بأمة لم تخطر منك على بال تعتز بالدين وحده وتتشرف برسالة الاسلام وتتشبع بحب محمد عليه الصلاة والسلام وتلتهب غيرة دينية وحماسة اسلامية وتجاهد فى سبيل الله ولا تخاف لومة لائم ، وان الله تعالى حذر العرب الأولين وقال نبيه صلى الله عليه وسلم « فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » ، وقال للمسلمين العرب « وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونو

أمثالكم ، ولله جنود السموات والارض ، وفى كنانة الاسلام سهام لا يرها أحد ولاتخرج الا فى وقتها : ومن يدرى فلعل شمس الإسلام تطلع من المشرق وهذه امم اسلامية فتية على سواحل المحيط الهندى وفى جزره تتحفز للوثوب وتتهيأ لقيادة العالم الاسلامى ، فاحتفظى يامصر العربية بمكانتك ومجدك ولا تأمنى دورة الأيام ولا تأمنى مكر الله ، فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » .

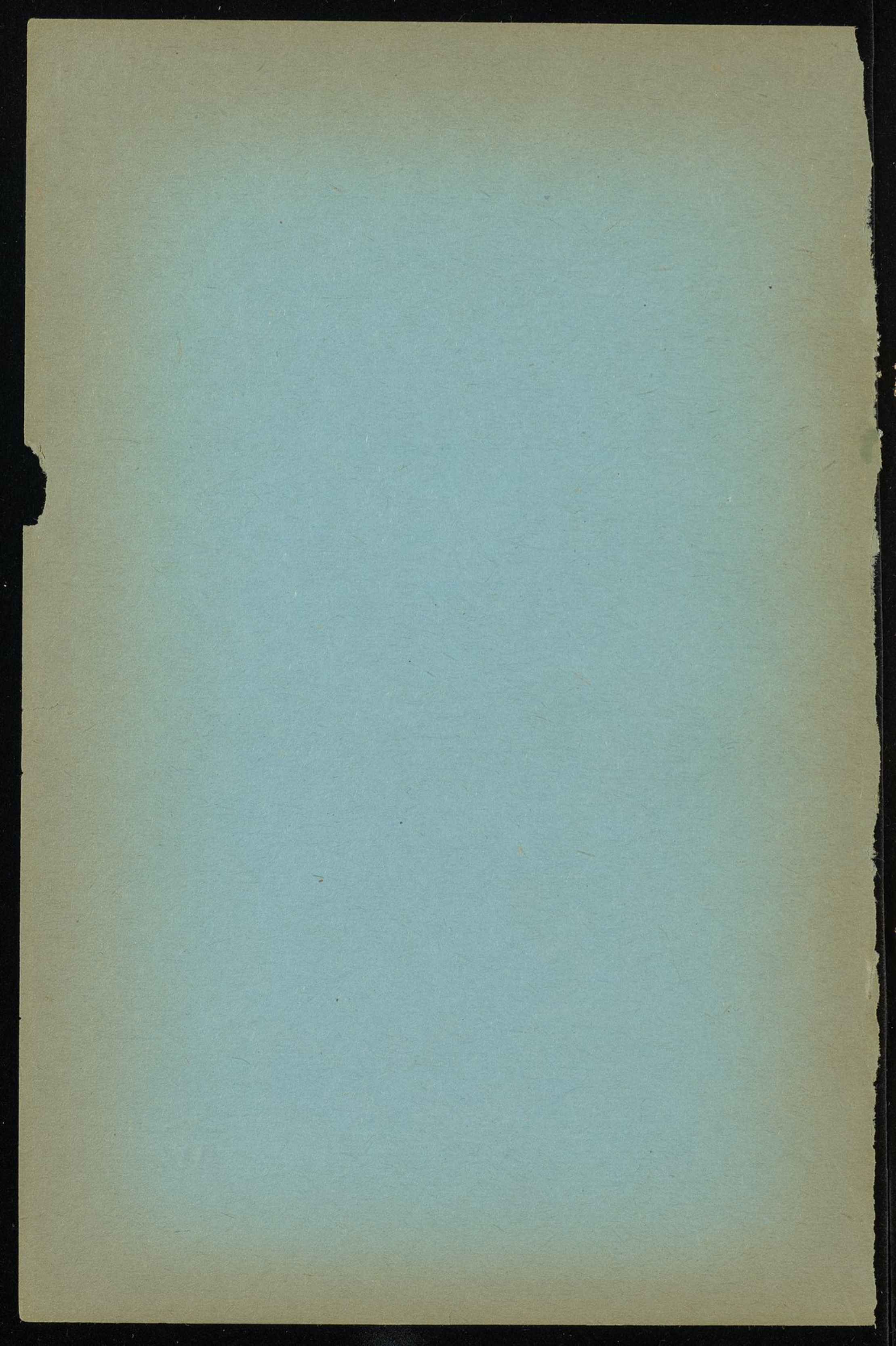
هذه تحيتى لك يامصر العزيزة فتقبليها ، وهذه آمالنا فيك فحققيها ، وكلمة للمرة الأخيرة فتحمليها ، وهذه معذرتى اليك فاقبليها ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .





فهرس

مطبعة فؤاد حلمى ش عبد العزيز حارة الطواشى ت ٥٨٧٢٨



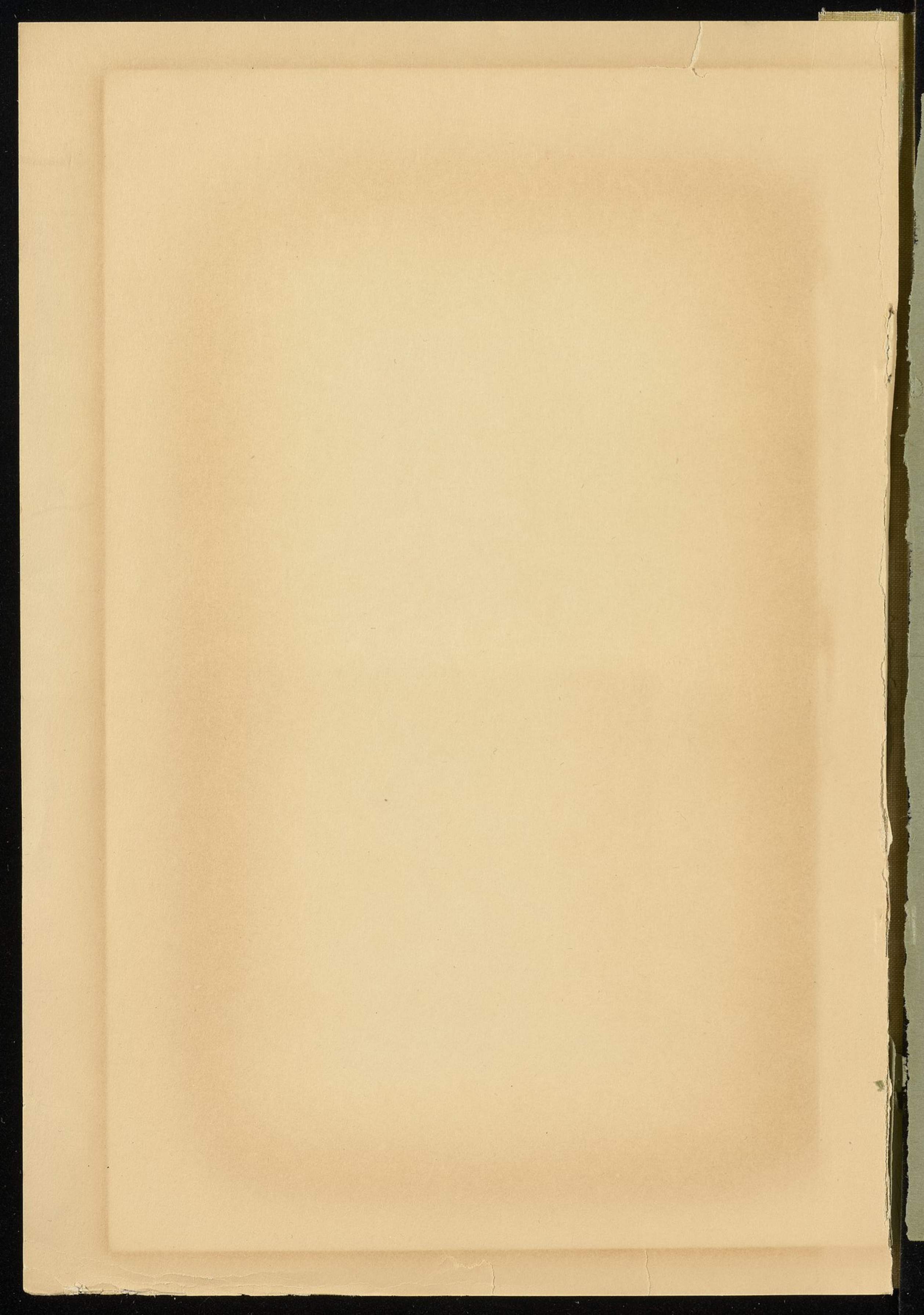
١٢٥

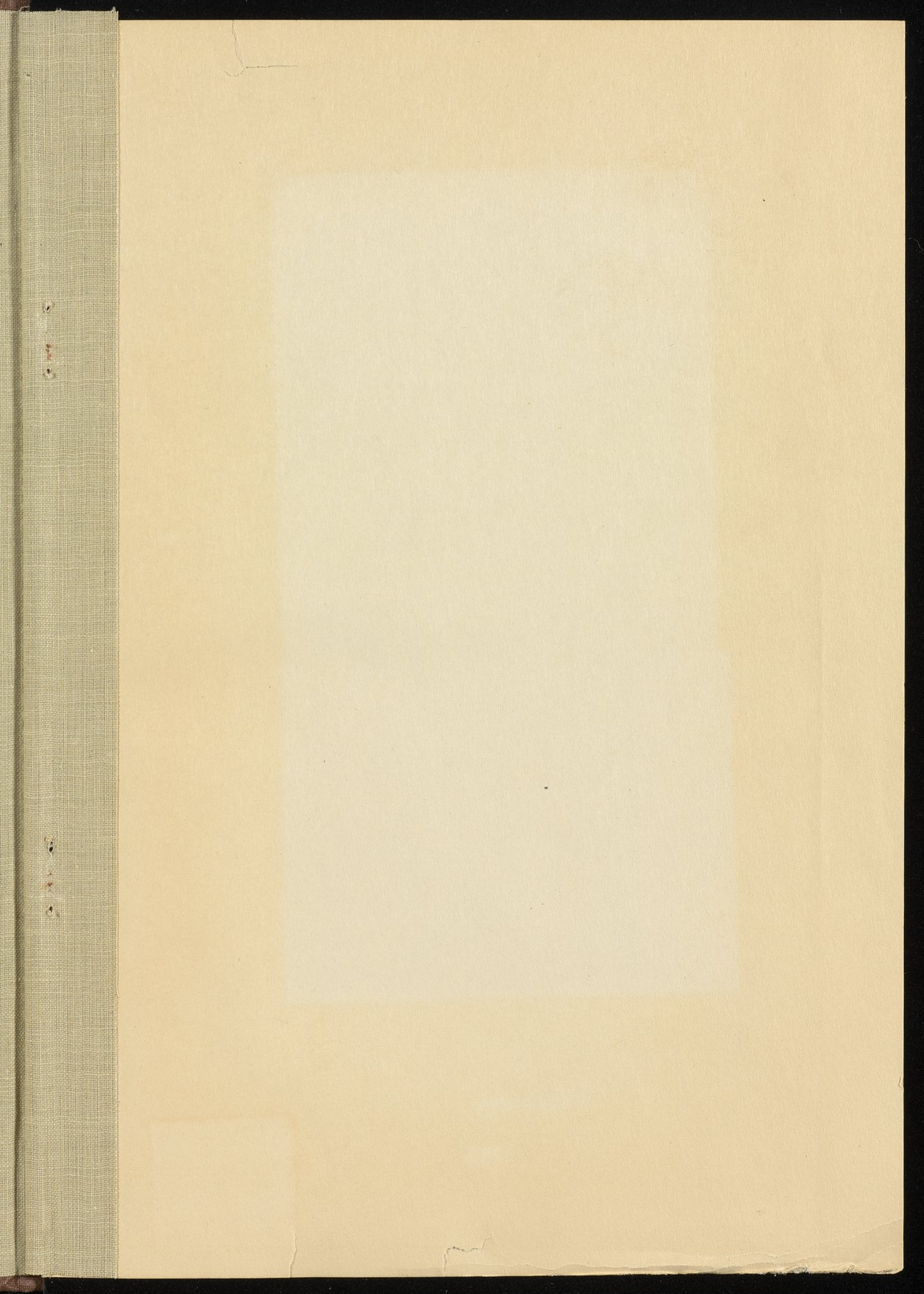
الناشر



٢٦ شارع عبد العزيز بمصر

ص
١٢





893.791
N125

BOUND

JUL 7 1955

GAYLAMOUNT
PAMPHLET BINDER
Manufactured by
GAYLORD BROS. Inc.
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.


COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58894365
893.791 N125
Ila al-Islam min jad

893.791-N125